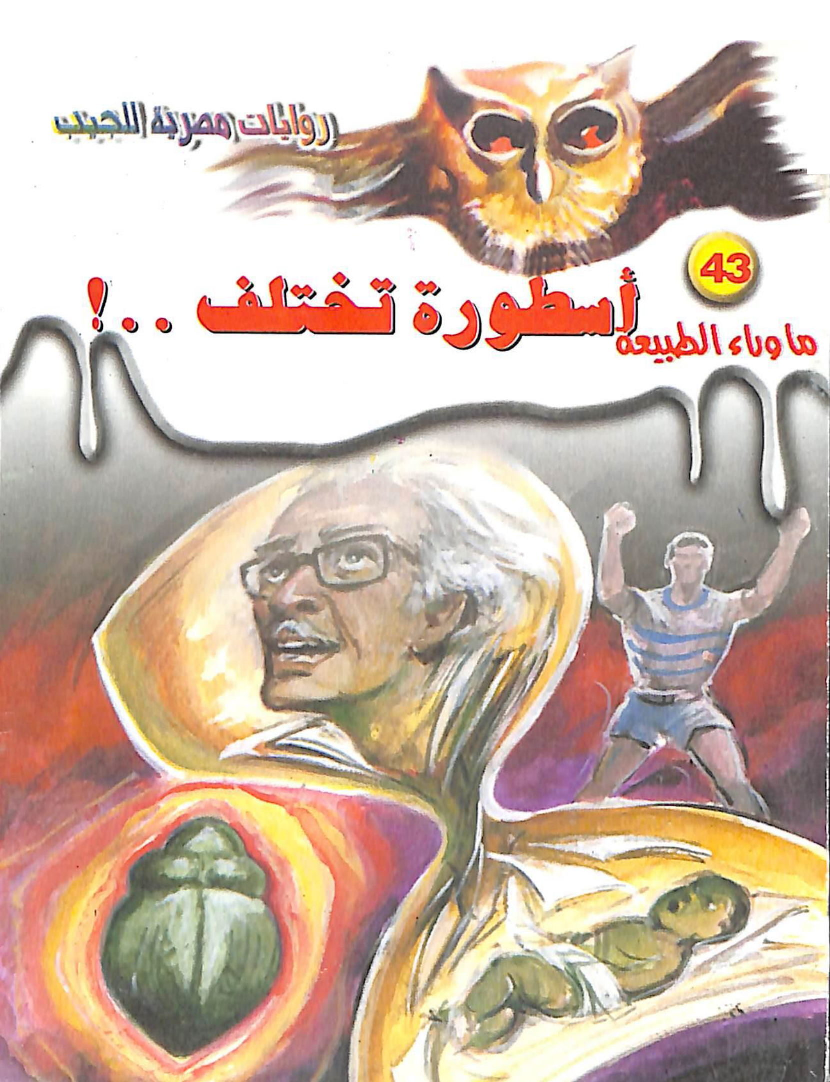

روايات مصرية للجيب
43
أسطورة تختلف ..!
ما وراء الطبيعة

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب



أسطورة تختلف ..!

كلا .. لن تكون هناك اليوم قلاع مسكونة .. لا .. ولامصاص دماء يفتح عينيه فى ظلام قبو .. ولاحتى مسخ ذئب يتربص خلف الأشجار فى ضوء القمر .. لن تكون هناك أشياء تتحرك ولانباتات وقحة ، ولاتعاويذ قديمة أطلقها كهنة (الإزتك) سريعو الغضب .. لاشىء من هذا .. لأنها أسطورة تختلف ..!



د. أحمد خالد توفيق



الثمن فى مصر

ومايعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم :

أسطورة رجل بكين !

43

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة تختفي

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنَّف مصرى مائة فى المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

●

إشراف

الأستاذ/ حمدى مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨، ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس - 202/2596650 ج.م.ع.

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

43

روايـــات تحـبس الأنفـــاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

أسطورة تختلف

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

مقدمة

فرغنا من قتل آخر (البيروسات) عند الخامسة مساءً ..

أنتم تعرفون أن قتل (البيروسات) ليس سهلاً ، وليس بالضبط نشاطًا محببًا ، لكن ما باليد حيلة ..

وفى الضوء الخابى كنت ترى وجهه المقلوب يرمقنا فى كراهية ، وعيناه قد صار لونهما أحمر تمامًا .. أحمر كالدم .. أحمر كـ .. كعينيه ..

بيد مخلبية رابعة راح يحاول الوصول إلى نسيج بنطالى ، فتراجعت للوراء خطوة ، ثم راح السائل الرغوى الأخضر يتدفق من فمه ..

كان (بكر) يقف جوارى ، يلهث من فرط الجهد ، وقال راجفًا :

ـ « لو رأيت هذا المشهد فى فيلم رعب ، لغادرت دار السينما ساخطًا .. » .

نظرت حولى لأتأكد من أنه ليس هناك آخرون ، وقلت وأنا أجفف عرقى الذى غلف عويناتى بالضباب :

- « لقد رأيت أسوأ ، وفى كل مرة ظللت جالسًا ، لأن دار السينما التى أجلس فيها ليس لها باب خروج .. هناك واحد لكنه يقود إلى الأبدية ، والخروج منه ليس باختيارك .. »

ونظرت ورائى لأرى وقع كلماتى عليه ، فلم أجده .. لقد ..

ها هو ذا واحد آخر لن يتألم ثانية ..

يومًا ما سأحكى لكم ما حدث بعد هذا ، وكيف وجدت نفسى فى هذا المأزق .. لكن اليوم مناسب لأحداث أكثر مرحًا وأقل بشاعة ..

إن أسطورة اليوم لها مذاق فريد مسلٍ ..

إنها أسطورة تختلف ..

* * *

تمهيد لا بد منه للأسف ..

ثم ما الجديد فى كل هذا ؟

تعرفون أننى مررت بفترة نفسية سيئة بعد صدامى مع (خادم الكلمات السبع) ، وتعرفون أننى فقدت أجزاء من جسدى ، وتعرفون أننى أصبت بالتهاب رئوى لفترة لا بأس بها ، وتعرفون أننى سافرت إلى الولايات المتحدة .. بالتحديد إلى (نيويورك) .. تعرفون أننى اتصلت هناك بـ (هارى شيلدون) صديقى القديم .. لماذا ؟ لأنه سيدمرنى لو عرف أننى جئت إلى الولايات ولم أتصل به ، وهو فى الغالب يعرف هذا ..

تعرفون كل هذا يقينًا .. فما الجديد هنا ؟

الجديد هو أننى تلقيت دعوة إلى نادى السحر إياه ، وكان الداعى هو النصاب اليهودى المعهود (سام كولبى) ..

حسن .. كان علىَّ أن أكون هناك ..

★ ★ ★

بالنسبة لمن قرءوا (حكايات التاروت) ؛ وهى حلقة الرعب الثانية ، يمكن أن نقول إن الجو كان شبيهًا بذات الجو الذى قابلت فيه د. (لوسيفر) .. المشكلة هى أننى أمقت الوصف بطبعى ، فقد مات (بلزاك) منذ عهد طويل .. (بلزاك) الذى كان يطلب من تلاميذه ـ هواة الأدب ـ أن يمشوا فى الحديقة عشر خطوات ، ثم يكتبوا واصفين ما رأوه فى عشرين صفحة !

مختصرًا سأكون .. ومختصرًا أقول إن اللقاء تم فى الشقة ذاتها فى (بارك أفينيو) ، وكان هناك عدد لا بأس به من سحرة (نيويورك) وسواهم .. سحرة من الطراز الذى ينشر جسد المرأة إلى نصفين فى عروض المسارح ، وسحرة من الطراز الغامض الذى يمارس شيئًا ما لا تدرى كنهه ، لكنه كريه منفر مظلم ..

كان الكل هناك .. وكان هناك ذات الجمع من غريبى الأطوار والحسناوات ومديرى الأعمال والوكلاء والممسوسين ..

وقلت لـ (هارى) وأنا أتأمل كل هذا غير راغب فى الاشتراك فيه :

ـ « أظن هذا المكان يجلب لك ذكريات تعسة ؟ »

قال فى استخفاف :

ـ « لماذا ؟ لقد جعلنى د. (لوسيفر) آخذ حذرى .. لم تكن تجربة معدومة النفع على كل حال .. »

كان الجو منفرًا كما تلاحظون ، لكنه ساحر غريب .. نعم ساحر .. وهذا هو السبب الذى جعلنى لا أرفض الدعوة ..

ومن وسط الناس ظهر لنا (سام كولبى) .. النصاب اليهودى الذى صار الخلاص منه مستحيلاً .. والحقيقة هى أن الرجل بلا ذاكرة ، وغير قادر على أن يحتفظ بوجه فى عقله فضلاً عن اسم ، لكن من الواضح أننى لا أُمحى من ذاكرة من يرانى بسهولة .. كلون الطلاء حين يلتصق للأبد بكوع بذلتك الجديدة .. ثم إن الرجل ما زال يعتقد ومازال متأكدًا من أننى (إدجار آلان بو) الذى عادت روحه إلى الأرض ..

بوجه الدمية الطفولى الذى يحمله رحَب بنا ، وبدا واضحًا أنه نسى كل شىء عن (هارى) .. قال لى وهو يتأبط ذراعى بيده الدقيقة :

- « قد مرَ وقت طويل منذ جلسنا فى هذه الشقة نسمع طالعنا من دكتور (لوسيفر) .. لا شك أنك سعدت بمعرفته حقًا .. »

قلت ما معناه أنها كانت معرفة خير حقًا ، وكنت أتذكر لقائى اللطيف معه فى قصة (دماء دراكيولا) .. إن الأشخاص الذين نتعرفهم بفضل إنسان مثل (كولبى) هم كوارث حقيقية .. مصائب تنتظر الحدوث ..

قال (كولبى) وهو يحيى هذا ، ويداعب ذاك :

- « ما كان لينبغى أن أفوّت فرصة لقائك ثانية ، وأنت من جعلنى شهيرًا فى أوساط السحر .. ولكن .. »

وتأملنى فى شىء من الحسرة وقال :

- « تبدو لى فى أسوأ حال .. كأن عشرين سنة قد أضيفت إلى عمرك .. »

قلت له فى رزانة :

- « ليس هذا ذنبى .. لقد قابلت الوباء الأسكتلندى القديم ، وقضيت معه ليلة كاملة فى المشرحة .. أنت تفهم هذه الأمور .. »

هزَ رأسه شأن العارفين وقال :

ـ « بالطبع .. بالطبع .. إن حياتك مرهقة مفعمة بالصدمات .. و ... »

ثم تقلص وجهه ، وبدا عليه الألم ، وهتف :

ـ « بعد إذنكما .. سألبى نداء الطبيعة .. معذرة .. إنها البروستاتا كما تعلمان » .

وقبل أن نعلق اختفى من أمامنا ..

تناول (هارى) كوبًا من عصير البرتقال تحمله ساقية حسناء على صحفة ، وناولنى إياه ثم تناول آخر ، وقال :

ـ « يبدو أن جراحى المسالك البولية نادرون فى (نيويورك) .. ولكن .. ما موضوع الوباء الأسكتلندى هذا ؟ »

قلت دون احتفال :

ـ « إنها حياتى .. وقد اعتدتها .. »

عاد (كولبى) منهمكًا فى إغلاق بنطاله ، وقد بلل كتفيه وصدره بماء حوض الغسيل كالعادة .. وقال لى مواصلاً ما بدأه :

- « الحقيقة يا د. (إسماعيل) هى أنك تذبل سريعًا جدًا .. جدًا .. »

- « أنا لم أكن زهرة قط كى أذبل .. يخيل إلىَّ أننى خرجت من بطن أمى عصبيًا ملولاً نحيلاً .. ولم يتهمنى أحد قط بأننى أملك نضرة الشباب .. »

- « لكنك - بالتأكيد - لن تعيش لترى الخمسين من العمر .. »

- « ليس فى الخمسين ما يغرى .. لو عشت لأراها فلا بأس ، ولو مت فلا خسارة هنالك .. أنت تحاول إقناعى بوجود مشكلة لا وجود لها .. تقنع رجلاً ضريرًا بألا يدنو من شاشة التليفزيون أكثر من اللازم لأن هذا يؤذى عينيه ! إن الضرير لن يدنو من الشاشة أصلاً .. »

اتسعت عيناه فى خطورة ، وقال :

- « ولكن الصحة .. من أدراك أن نهايتك ستكون نظيفة ، من دون جلطات مخية وقروح فراش وبتر أطراف و ... ؟ إن الصحة تمنحك هذا الضمان ما دامت لن تطيل عمرك .. »

فأل اللَّه ولا فألك أيها اليهودى المستفزَ ! ..

هذا الذى يقوله هو كابوسى الحقيقى ، والشىء الوحيد الذى يرهبنى أكثر من كل مصاصى الدماء والمذءوبين والموتى الأحياء .. إننى أقبل فكرة الموت السريع .. موت النوبات القلبية المفاجئ الذى يطلبون قبله كوبًا من الماء .. ثم .. هوب ! ينتهى الأمر بنظافة ..

لكنى أكره ـ كالموت ـ فكرة الموت البطىء المفعم بالألم والسقم ..

قلت له محاولاً تغيير مجرى الحديث :

ـ « هل لديكم ضيف فوق العادة هذه الليلة ؟ »

قال فى رضا :

ـ « بالتأكيد .. لكنه رجل عادى لا يملك هالة الإبهار والغموض التى يحيط بها (لوسيفر) نفسه .. وهذا هو ما جعلنى أتحدث عن الشيخوخة والاضمحلال .. الحقيقة هى أن (ميخائيل ميلفيسكو) يملك مفاتيح استرجاع الشباب .. »

ـ « أرومانى هو ؟ »

- « بالطبع .. إن (إسكو) فى نهاية الأسماء لها رنين لا تخطئه الأذن .. »

كنت قد قرأت الكثير عن دكتورة (أنا أصلان) الرومانية ، وتجاربها على فيتامين (هـ) ، وشعرت بأن هناك قدرًا من الحماس الزائد فى تفسير نتائج تجاربها .. لقد تعاملت معها الصحف باعتبارها المرأة التى اكتشفت نبع الشباب .. وخمنت أن (ميلفيسكو) هذا يبيع الصنف ذاته .. ربما هو قد سرق علبة بها عشر كبسولات من فيتامين (هـ) من معمل الدكتورة المذكورة ..

وصارحت (كولبى) برأيى ، فقال :

- « لا .. إن طريقته فريدة بحق .. إنه لا يعتمد على العلم بتاتًا ! »

- « هذا شىء مطمئن .. »

- « أعنى أنه يعتمد على العلم الخاص الذى لم يُقنَّن بعد .. الذى لا يمكنى قياسه أو رؤيته أو تفسيره .. »

ثم تقلص وجهه ألمًا لأن البروستاتا كما تعلمون ..

★ ★ ★

حين عاد راضيًا مسرورًا ، سألته السؤال الوحيد المنطقى :

ـ « لماذا لم تطلب منه أن يريحك من مشاكل البروستاتا ؟ »

قال كأنما يتوقع السؤال :

ـ « لأنه لا يتقاضى أجرًا ، وهو يمارس فنه مع الشخص الذى يختاره دون سواه .. ومن الواضح أننى لا أروق له .. »

تبادلت نظرة مع (هارى) .. على الأقل يوجد شىء واحد محترم فى (ميلفيسكو) هذا .. ثم قلت :

ـ « يا سلام ! وما هى شروطه فيمن يختاره ؟ »

ـ « لا شىء .. هو يراه ويقرر .. إن للرجل أسبابه الخاصة .. »

ـ « إذن بالتأكيد لن أروق له .. »

ـ « يمكنك أن تقابله وتتأكد من هذا .. »

★ ★ ★

وكان جالسًا على أريكة مع ثلاثة آخرين .. أقول إنه كان جالسًا على سبيل المجاز لأنه ـ فى الواقع ـ كان غائصًا .. إنها أريكة من تلك الأرائك المريحة أكثر من اللازم التى لا تنفك تبتلعك أكثر فأكثر ..

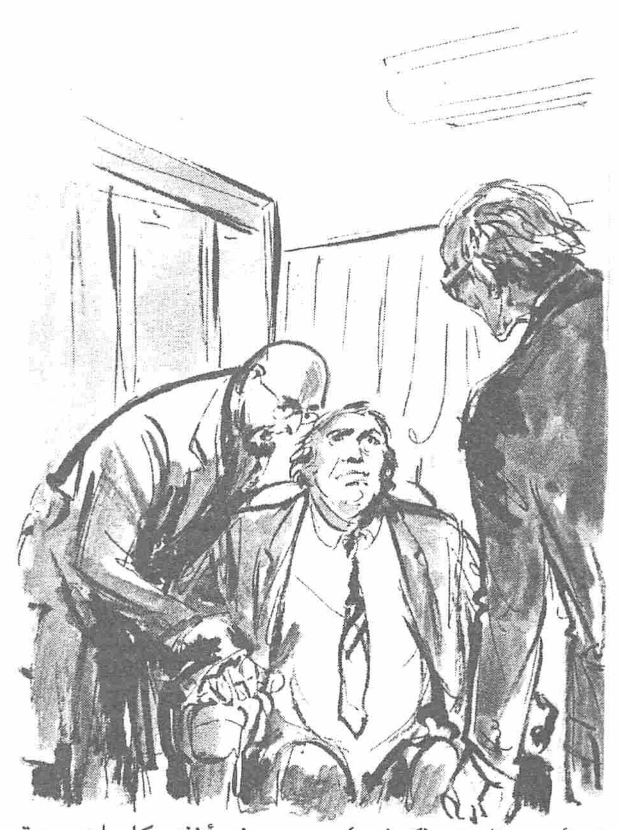
كان لهؤلاء القوم منظر مريب يوحى بالشر كأنهم زعماء المافيا فى اجتماع ، وأدركت أن رجلنا هو أكثرهم بدانة وأضخمهم بطنًا ، وكانت له قسمات عملاقة غريبة تشعرك بأن هذا كله خيال ..

فى أدب دنا منه (كولبى) وهمس فى أذنه بكلمات عدة ، فاستدارت عيناه لى ورمقتى لحظة ، ثم تهلل وجهه وقال :

ـ « سعيد بمعرفتك يا بروفسور (إسماعيل) .. »

وبذل جهد جهيدًا حتى ينجو من الأريكة الشفَاطة .. وفى النهاية وقف .. لم يكن عملاقًا .. كان أقصر منى قليلاً بما لا يتناسب مع ملامحه الهائلة .. صافحنى بيد هائلة بدورها ، وقال :

ـ « يمكننا أن نتحدث فى مكان أكثر هدوءًا .. أرجو المعذرة يا سادة .. »



فى أدب دنا منه (كولبى) وهمس فى أذنه بكلمات عدة ،
فاستدارت عيناه لى ورمقنى لحظة ..

كان يتكلم بإنجليزية رومانية أو رومانيـة إنجليزيـة .. وهى لغة اعتدتها بعد ما كان لى من قصص فى (رومانيا) ..

قال لـ (كولبى) وهو يدفعنا دفع الخراف إلى ركن القاعة :

ـ « يبدو أن هناك مكانًا منعزلاً هنا يا (كولبى) .. »

قال (كولبى) فى أدب :

ـ « ثمة مكتب صغير هناك .. وهو مغلق .. »

ـ « إذن يناسبنا هذا .. »

وبعيدًا عن صخب الحفل فتحنا باب المكتب ، ودخلنا .. كان عاريًا من الأثاث إلا من منضدة صغيرة عليها جهاز هاتف ، ومقعد أمامها ومقعد خلفها ، إذا اتفقنا على (أمامها) و (خلفها) هذين ..

أراح جسده الضخم المكتنز على أحد المقعدين ، وأشار لى إلى مقعد آخر ، وقال لـ (كولبى) :

ـ « يبدو يا (سام) أننى سأطلب منك أن .. »

فهم (كولبى) على الفور ، فهزَ رأسه وأشار لى بما معناه : اطمئن .. أنت فى يدين أمينتين ، ثم غادر المكتب وأغلق الباب ..

★ ★ ★

مرَ صمت ثقيل ، ثم تكلَم (ميلفيسكو) :

ـ « إذن ؟ » ..

قلت له فى حرج :

ـ « الحقيقة هى أننى لا أعرف ما قاله لك المستر (سام كولبى) ، لذا أجد عسرًا فى البدء .. »

ـ « سأحاول أن أريحك .. أنت تصبو إلى استعادة شبابك المفقود .. »

ـ « لم أقل هذا بالضبط .. لنقل إننى أصبو إلى موت نظيف خال من الأمراض الطويلة .. إن المرض مهين يا سيدى ، وبصورتى الحالية أعتقد أنه آت لا محالة .. »

قرَب وجهه العملاق منى ، وقال :

ـ « وأنت لا تثق بأننى قادر على ذلك .. »

ـ « لنقل بطريقة أخرى إننى لا أعرف ما أنت قادر عليه .. هل الأمر يتعلق بالتمارين السويدية وحمامات البخار وفيتامين (هـ) ؟ »

فتح كفه فى وجهى بما معناه : لا .. لا أرجوك .. ثم قال :

ـ د. (رفعت) .. هل تسمح لى بمناداتك بهذا ؟ »

ـ « أرجوك أن تفعل .. »

ـ « د. (رفعت) .. إن الطريقة التى أنوى استعمالها معك طريقة فريدة ، لا يمكن قياسها إلا بناتجها .. أنت تعرف منهج (الاستدلال العلمى) المعروف .. لا أحد يرى الإليكترون ولا يمكن وزنه بميزان ، لكن آثاره تدلَ عليه ، وهذه الآثار يمكن ملاحظتها فى تجارب قابلة للتكرار .. من هذا نستدل على أن هناك ما يُدعى بالإلكترون .. ثمة شىء ما لا يمكن وصفه ولا استيعابه يحيط بنا فى كل لحظة ، وحتى (برتراند راسل) الذى وجد نفسه فى علمى الرياضة والمنطق قال : إن الرياضيات هى حروف كتاب الطبيعة ؛ لكنها ليست الكتاب نفسه ! » .

ثلت فى نفاذ صبر :

ـ « لا أدرى ما ترمى إليه .. لست (برتراند راسل) ولا أحبَ أن أكونه .. ليس لدىَ أى افتراض مسبق إلا فيما يصدمنى عقائديًا أو علميًا .. فيما عدا هذا أنا أقبل التجربة وأحترمها .. لقد افترض (أرسطو) أن أسنان المرأة أقل من أسنان الرجل ، ببساطة لأنه لم يحاول أن يجرَب .. لم يحاول أن يفتح فم أول امرأة يقابلها ويعدَ أسنانها .. »

ابتسم الرجل ، وقال :

ـ « إذن أنت متعادل .. »

ـ « بالطبع .. لست مستعدًا لاتهامك بالنصب ، ولست مستعدًا للوثب فى الحجرة انبهارًا بقدراتك .. لن أفعل هذا الآن .. »

قال فى رضا :

ـ « حسن .. لعلك تتساءل لماذا اخترتك أنت بالذات ؟ »

ـ « هذا سؤال فى موضعه .. »

- « لأنك متعادل .. من اللحظة الأولى أدركت أنك متعادل .. لست منبهرًا قابلا للإيحاء مثل (سام كولبى) ، ولست عدوانيًا متحفزًا كصديقك الأمريكى الذى رأيته معك .. إن القابلين للإيحاء لا يناسبوننى ، لأنك طبيب وتعرف جيدًا تأثير (البلاسيبو) Placebo effect[*] أما من يبدءون التجربة وهم يرفضونها ويرفضون وجودى ، فهؤلاء لا يناسبوننى .. ولربما تدخل رفضهم فى نتائج التجربة .. إن للجسم كيمياءه الغامضة على كل حال ..

« ومن نافلة القول يا د. (رفعت) أن أخبرك أن جلَّ من يتقدمون لى ، يقعون فى واحدة من هاتين القائمتين .. أما من لا يندرج فيهما فهو صيد ثمين .. »

وضعت ساقًا على ساق ، وسألته فى شك :

- « وكم تكلفنى هذه التجربة ؟ »

(★) (البلاسيبو) هو ، دواء وهمى يتم إعطاؤه للمرضى لاستبعاد عنصر الإيحاء من الموضوع ، وذلك عند تجربة دواء جديد .. وله معنى آخر هو (صلاة الموتى) فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية .. معنى الكلمة باللاتينية هو (سوف أُسعِد) .. بضم الألف وكسر العين ..

قال كما أتوقع بالضبط :

ـ « أنا لست بقالاً .. ثمة أشياء لا تشترى ولا تباع .. »

أنا لست بقالاً .. هكذا يبدءون وفى النهاية يطلبون تبرعًا بسيطًا لجمعية (سحرة بوخارست) أو شيئًا من هذا القبيل .. إن (جوستاف) صديقى الرومانى سيضحك كثيرًا لو سمع هذه القصة ..

قلت وأنا أتأهب للنهوض :

ـ « لكن لكل شىء ثمنًا .. أنت لا تفعل هذا من أجل جمال منظرى .. »

ـ « بل هناك ثمن يا د. (رفعت) ، لكنه ليس كما تتصوَر .. »

ـ « إذن هى قصة د. (فاوست) ثانية .. هل معك العقود اللازمة لأبيع لك روحى مقابل الشباب ؟ » .

ضحك ضحكة رنانة معدنية .. إنه ممن يهتزون كالجيلى عند الضحك ، وقال :

ـ « ولا (فاوست) .. إننى أريد منك شيئين لا شيئًا واحدًا .. »

رفعت حاجبىَ بمعنى الانتظار .. فقال :

ـ « الشىء الأول هــو أن أسـلوب المعـالجة سيظل سرًا .. وإننى لأنتظـر كلمـة شـرف منـك ، وأنـت فيمـا يبدو لى رجل شريف .. »

ثم جفف قطرات عرق نبتت على جبينه وأردف :

ـ « أما الشىء الثانى فهو .. »

★ ★ ★

وحيـن خرجـت مـن الجلسـة ، سـألنى (كولبـى) و (هـارى) عمـا تـم فيهـا ، فهززت رأسى سلبًا كما يفعلون عند الخروج من مباحثات القمة ، وقلت :

ـ « لا تصريحات .. لقد وعدته بشرفى .. »

ولنفس الأسباب يا رفاق لا أستطيع أن أشرح أسلوب المعالجة ، ويكفى أن أقول إن العملية استغرقت ساعتين من عصر اليوم التالى ..

وبعد يومين كنت فى الطائرة عائدًا إلى وطنى ..

ومن هنا تبدأ القصة ..

★ ★ ★

عشرة !

السبت ١٨ إبريل :

من جديد أعود لكتابة مذكراتى .. إن الحلم القديم لدىَ لن يموت أبدًا .. أن تكون عندى مذكرات ، وأنا - كما تعرفون - لم أواظب قط على شىء فى حياتى ، ما عدا عادات التنفس والأكل والشرب والإخراج ، لأنها لا تتم بإرادتى ، ولكن بإرادة فسيولوجية عليا .. مازلت آمل أن أصل إلى نهاية رحلة العمر ، ولدىَ عدد هائل من الكراسات التى تحكى تفاصيل حياتى ، ولكن أية حياة هذه ؟

فما لم يحدث شىء مهم لى فلسوف تظل مذكراتى هى مذكرات تلك الإرادة الفسيولوجية .

لقد عدت إلى مصر أخيرًا ، ولا أعتقد أن تغييرًا ما قد طرأ علىَ .. مازلت ألهث عند صعود الدرج ، وأسعل فى الفجر حتى يوشك لسانى على الوثب من فمى ، وتوشك الأكلات الدسمة على إزهاق روحى ..

إننى مازلت أنا ..

بالطبع كنت أعرف هذا من البدء ، لكنى لم أعترف به .. إننا أطفال خالدون ، وكلما تقدم بنا العمر ازددنا طفولة ورفضنا فكرة الشيخوخة .. لكننا نشيخ طيلة الوقت ، ونموت ، وينسانا أصدقاؤنا الأعزاء مهما بكوا علينا فى البداية .. هذه هى الحقيقة .. قبولها نضج ورفضها عته .. لكننا ـ المؤسى ـ نفضل أن نكون معاتيه على أن نكون شيوخًا ..

الأحد ١٩ إبريل :

لم يحدث لى شىء اليوم ..

الاثنين ٢٠ إبريل :

لا مزاج عندى لكتابة مذكراتى اليوم ..

الثلاثاء ٢١ إبريل :

كنت فى مكتبى بالكلية أطالع بعض الأوراق العلمية ، وأثار شغفى شىءٌ ما ، فمددت يدى أصلّح من وضع العوينات على أنفى طمعًا فى وضوح الرؤية كعادتى دائمًا ..

هنا لاحظت أنها لم تكن على أنفى ..

أصابتنى الدهشة وبحثت عنها على المكتب ، فوجدتها فى جرابها لم تمس .. إن لدىَ مجموعة هائلة من العوينات .. بعضها للمسافات وبعضها للقراءة وبعضها للبحث عن النوعين الآخرين ، وقد صار تصلُّب عدسة العينين ـ وهو داء الكهولة الشهير ـ ملازمًا لى ، فلم أعد قادرًا على مطالعة الجريدة دون عوينات ، ودون أن أبعدها على امتداد ذراعى ..

معنى هذا أننى قرأت كل ما قرأت دون عوينات ، ودون أن ألاحظ فارقًا يُذكر .. إنها علامة غريبة حقًا ..

ثم لاحظت شيئًا آخر أكثر غرابة ..

لقد صعدت فى الدرج ـ نحو ثلاثة طوابق ـ دون لهاث ، ودون آلام عاصرة فى الكتف اليسرى ، ودون ذلك الجوع إلى الهواء الذى يثير شفقة من يراه .. الحقيقة هى أننى أتحسن .. لا أدرى كيف ولماذا .. لكن هذا حقيقى .. أشعر به ..

هل هذا هو تأثير (البلاسيبو) الشهير ؟ أم أن (ميلفيسكو) يعمل حقًا ؟

ما زال الوقت مبكرًا كى أعرف الفارق ..

الأربعاء ٢٢ إبريل :

من جديد تتزايد علامات الاستفهام وتتشابك ..

لقد كان موعدى اليوم مع الدكتور (صبحى متى) طبيب القلب الذى يتابع حالتى ، والذى كان في كل لقاء يزداد وجهه تقلصًا ويطقطق بشفتيه ، قائلاً إن بقائى حيًا هو أعجوبة طبية تتحدى كل القوانين .. رسم القلب مرعب ، وضغط الدم شنيع .. وفى كل مرة يودعنى وعيناه تترقرقان بالدموع باعتبارى (كنت نبراسًا يشع لزملاء المهنة) و (فليرحمنى الله) .

هذه المرة نظر لى فى عناية متفحصًا ، وقال :

ـ « ما شاء الله .. عينى عليك باردة .. تبدو لى فى أحسن حال .. »

ولفَ جهاز قياس الضغط حول ساعدى ، وراح ينفخ متوقعًا أسوأ النتائج كالعادة ، لكن شفتيه تباعدتا ، واتسعت حدقتا عينيه ، وقال :

ـ « غريب هذا ١٦٠/١٠٠ ! »

- « مرتفع قليلاً .. ألا ترى هذا ؟ »

صاح فى انبهار :

- « بل هو أفضل قياس قرأته لك منذ عرفتك .. إنها معجزة ! »

وأوصلنى بأقطاب رسَام القلب العشرة . وراح كالصقر يراقب الشريط المتجمع ببطء بحثًا عن تلك الموجة الشاذة أو تلك التى تعنى أن خراب بيتى قريب .. ثم طقطق بشفتيه فى حسرة :

- « ممتاز ! لا أدرى ما الذى فعلته كى تتحسن هكذا ، لكنى أنصحك بأن تواصل فعله .. »

وفرد الشريط بين كفيه كأنه ثعبان ميت وجده فى القبو ، وراح يدقق فيه المرة تلو المرة ، ثم قال :

- « ممتاز ! لكن لا تتفاءل كثيرًا .. ربما هى صحوة الموت ! إن مرضى كثيرين يتحسنون لحظيًا قبل الانهيار النهائى .. »

قلت وأنا أزر قميصى :

- « شكرًا .. سأتذكر ذلك .. »

وغادرت عيادته خفيفًا نشطًا ، يلعب برأسى ألف خاطر باسم ..

إن الرومانى لم يكذب .. كل الشواهد تؤكد أنه لم يكذب ..

الخميس ٢٣ إبريل :

لاحظ الحلاق ـ وهو الرجل الموكَل بتشذيب الشعر الثائر على جانبى رأسى ـ أن عدد الشعيرات البيضاء يقل نوعًا .. أو بعبارة أدق لاحظ أن الشعيرات السوداء ، قد بدأت تظهر وسط القطن الأبيض الذى هو ما بقى من شعرى ..

ـ « قلت لك مرارًا يا دكتور .. التغذية أهم من أى شىء آخر .. التغذية والبال الرائق .. إن الشيب خرافة يا دكتور .. صدقنى أنا .. »

كدت أعلن رأيى ، ذلك الرأى الذى لن يستطيع أى طبيب كتمانه لو صارحه حلاقه بأن الشيب خرافة ، لكنه أخرسنى على الفور :

ـ « خذنى أنا على سبيل المثال .. »

وتأمل وجهه فى المرآة وهو يقف خلفى ، ومرَر المشط على شعره .

ـ « هـذا أنـا .. سـتون عامًا لكنك لا تـرى شـعرة بيضاء واحدة .. هذا نتاج البال الرائق والأكل الجيد .. صدقنـى .. كـان السـمن البلـدى صديقنـا قبـل الإفطـار وبعـده ، وفى الغداء والعشـاء .. وقبل زفافنـا شـربت عروسى كوبًا كاملاً من السمن البلدى لتكون أجمل .. إن ما تأكلون اليوم ليس طعامًا .. »

شـعرت بشراييني التاجيـة تتقلص مـن هـول الفكـرة ـ ومعهـا معدتى طبعًـا ـ وكتمت عنـه خـواطرى التـى لـن يتذوقهـا .. لا تجـادل الحـلاق أبـدًا فهـو سـيقهرك مهما حاولت ..

لكننى كنت فى منتهى السعادة بفكرة استرداد بعض الشعيرات السوداء من فكَى الشيخوخة ..

وقد لاحظت ـ وقت الغداء ـ أن معدتى تتحسن بشكل غـير مسـبوق .. لقـد التهمـت طبقًـا كـاملاً مـن الأرز والخضر ، مع أكثر من ربع بطة أرسلها لى أهلى منـذ يومين ، مع .. مع .. والغريب أن كل هذا مرّ بسلام ونمت بعده نومًا عميقًا هانئًا ..

لكننى ـ عندما صحوت ـ حاولت تهدئة حماسى بعض الشىء وقلت لنفسى .

ـ « من يدرى ؟ ربما أنت يا (رفعت) حالة أخرى من التأثر بالوهم .. حالة أخرى من القابلية للإيحاء .. لقد تحسنت لأنك توقعت أن تتحسن .. كلنا يعرف الدجَالين مدعى الطب فى القرى .. إنهم يحقنون مرضاهم بالماء القراح ، وبرغم هذا يتحسن المريض بشكل ملحوظ من ناحية الأعراض على الأقل ، لكن اللعبة لا تطول وسرعان ما يعود المرض أعنف وأكثر شراسة .. »

فى المساء كان عندى موعد مع الدكتورة (كاميليا) ..

كان هذا فى السابعة مساءً ، فى تلك الكافتيريا الصغيرة التى هى خليط من المقهى والمطعم .. إن الدكتورة (كاميليا) قد صارت صديقًا عزيزًا لى كما تعلمون ، فهى تملك عقل رجل راجحًا حكيمًا ؛ ولو كان لها شاربان وتحلق ذقنها كل صباح ، لكنت أكثر راحة وسرورًا فى التعامل معها ..

لكنى كنت أمقت هواجسها الوجودية ، وميولها

القيادية المستفزة قليلاً ، بينما كانت هى مرتابة فى حالتى العقلية ، خاصة بعد قصة (عدو الشمس) و (أسطورة رفعت) ، حيث تكفلت الظروف بجعلى أتصرف تصرفات عجيبة معها .. والسبب فى المرة الأولى أنها لم تكن هى ، والسبب فى المرة الثانية أننى لم أكن أنا !

ما علينا ..

فما إن رأتنى ، حتى قالت فى دهشة :

ـ « عينى عليك باردة ! »

نفس العبارة أسمعها أكثر من اللازم هذه الأيام ..

لم أجرؤ بالطبع على مصارحتها بموضوع الرومانى إياه .. المفترض أننى رجل عقلانى بارد لا تليق به هذه المهاترات .. قلت لها وأنا أنادى النادل :

ـ « لنقل إن الحياة أحسنت إلىَ كثيرًا فى الآونة الأخيرة .. »

قالت فى جدية :

ـ « أنا لا أمزح .. لقد قلت التجاعيد فى وجهك كثيرًا .. يخيل إلىَ أنك قد صغرت عشرة أعوام ! »

عشرة !



قالت فى جدِّيَّة :

ـ « أنا لا أمزح .. لقد قلت التجاعيد فى وجهك كثيرًا » ..

هذا هـو مـا أشـعر بـه فعلاً ، وقـد أمسكته هـى .. أشـعر أننـى فـى الثلاثينـات مـن عمـر ى .. ربمـا فـى الخامسـة أو السادسـة والثلاثيـن .. جسـدى جسـد فـى العقد الرابع من العمر ، وربما تفكيرى أيضًا ..

قلت لها بلهجة تقريرية :

- « إننى أتناول وجبة خاصة ، مع جرعـات عاليـة من فيتامين (هـ) .. لا مشكلة هنالك .. »

مالت برأسها الأشعث نحوى ، وقالت همسًا :

- « هل يضايقك أن تكتب لى نظام حميتك بالضـبط ؟ أنا أيضًا أشعر بعدم راحة بسبب الزمن .. يخيل إلىّ أن زحف السنين أسرع من قدرتى على الاستمتاع بها .. »

وكنت أفهم ما تعنيه.. التجاعيد .. الشيب .. علامات وندوب الصراع مـع الزمـن تظهـر - بلا رحمـة - على الوجـه ، وهى - بعد كل شىء - أنثى .. قـد تتكلم عن العقـل المجـرد وعـن مقـولات العقـل وصـراع الوجـود العبثى ؛ لكنها - فى النهاية - تتضايق جدًا حيـن تجـد شـعرة بيضـاء فـى مفرقيهـا ، ولهـذا تضـع كـل هـذه الأصبـاغ على وجههـا - كمـا قلت سابقًا - كأنها هندى أحمر ذاهب لحرق معسكر الوجوه الشاحبة ..

ـ « سأكتب لك نظام حمية ناجعًا .. »

وكانت خجلى من اعترافها الأخير الذى يكشف عن كونها امرأة ، وربما عن كونها إنسانًا أيضًا ، لذا حاولتْ تغيير الموضوع على الفور :

ـ « ماذا عن بروفات كتابى ؟! »

وكتابها هذا كان ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير ، قامت بلفها فى كيس بلاستيكى كى لا تتبعثر .. وكانت مكتوبة بخطها الكبير الراسخ الذى يُعنى بنقاط التاء المربوطة ، والهمزات عناية بالغة ..

أما عن موضوع الكتاب فهو (مدارس العقل من سقراط حتى هربرت ماركوس) ..

وكان هذا كتابها الأول ، وتهدف به إلى تبسيط الفلسفة لتناسب رجل الشارع .. أى أنه ـ لو تحقق حلمها ـ سنجد البقال يبدى رأيه فى فلسفة (شوبنهاور) ، وأم (سعد) ـ مدبرة دارى ـ فى (الجشتلط) ..

لقد أعطتنى أصول الكتاب من زمن سحيق ، وبالطبع لم أقرأ منه حرفًا .. أنا أمقت الفلسفة ولا أفهمها ، وأراها فن الكلام عن البرتقالة حتى تفسد بدلاً من

التهامهـا .. لكننى ـ بدافـع الحــرج غالبًـا ـ أخـذت الكتـاب ، ووعدت بقراءته بعنـاية وإبـداء رأيى فيـه ، وكان هذا الرأى مهمًا بالنسبة لها للغاية لأننى ـ كما تعتقد ـ من المثقفين الذين هم قشدة المجتمع ..

هنـا فقط تذكرت الكتـاب ، ودعـوت اللَّه ألا تكون أم (سعد) قد وجدته وباعته لأول بائع (طعميـة) فـى الحارة التى تعيش بها ..

قلت وأنا أحاول التذكر :

ـ « لم أفرغ منـه بعد .. إنه شديد العمـق ولا يُقرأ فى جلسة واحدة .. ثم إن رحلتى إلى الولايات المتحـدة قد .. »

ـ « حاول أن تنتهى منـه سريعًا .. إنهم يطـالبون به .. »

ومضت الجلسة فى بعض المحاورات (العميقة) ، مثـل سبب سقوط أقلام الحبر علـى سنونها ، ورنيـن جرس الهاتف حين تكون فى الحمام ، وتأخر القطار عن موعده حين تصـل إلـى المحطـة مبكرًا ، ورحيلـه فـى الوقت المحدّد بالضبط لو تأخرت أنت عشر ثوان ..

سأقرأ الكتاب غدًا .. بالتأكيد سأفعل ..

الجمعة ٢٤ إبريل :

بعد طقوس الجمعة الشهيرة : الصلاة والغداء والنوم ، شعرت بوحدة بالغة .. قررت أن الوقت قد حان لقراءة كتاب (كاميليا) .

جلست فى الصالة أصغى لصوت انهمار المطر فى الخارج .. كان يومًا مطيرًا رمادى السماء له كآبة محببة .. البرد يتسرب إلى قلبك وأعصابك .. إننى وحيد جدًا .. وحدتى تفوق وحدة الآخرين .. هناك من هو وحيد لأنه ليس معه واحد آخر .. وهناك من هو وحيد لأنه ليس معه اثنان .. والوحيد الذى ليس معه ثلاثة .. أنا ذلك الوحيد البائس الذى ليس معه مائة شخص .. لهذا أقول : وحيد جدًا ..

جرعت جرعة من الشاى الساخن ، وأرحت كفَى على الكوب ورحت أطالع الصفحات .. غريب هذا ! الكتاب جيد بالفعل .. جيد وشائق ، وينجح فى ربط الفلسفة بحياتنا إلى حدَ غير مسبوق ..

رحت أثب ـ كحصان طليق ـ بين الصفحات على صوت العاصفة .. علىَ أن أتحكم فى نفسى كى لا أنتهى من هذا الكتاب الساحر فى جلسة واحدة ..

وعلى وريقة صغيرة رحت أخط ملاحظاتى كى لا أنساها ..

ترك ما قرأته تساؤلات عديدة فى نفسى .. تساؤلات كنت أحسبنى أملك الإجابة عنها ، وزرع فى نفسى حيرة محببة تجاه كينونتى وكينونة الآخرين .. أنت بارعة بحق يا (كاميليا) .. وإننى لأنحنى لك احترامًا ..

إنها العاشرة مساء ..

ترى هل أنام أم ..... ؟

نعم .. إن لى فترة لا بأس بها منذ ذهبت إلى دار (عزت) آخر مرة لقد تعافى تمامًا من المرض ، ومن المفترض أن يكون الآن فى شقته ما لم يكن فى (الإسكندرية) ..

تمنيت الاحتمال الأول ، وتوكلت على اللّه وارتديت

الروب ودسست قدمىَ فى المركوبين ـ وهى بالمناسبة لفظة فرنسية .. أعنى (مركوب) طبعًا ـ واتجهت إلى شقة المذكور ، ففتح لى الباب ، وقال فى انبهار :

ـ « ما شاء اللّه ! عينى عليك .. إلخ .. »

لقد صار هذا مملاً .. كم هو مضجرٌ أن تكون فى أفضل حال ، لا يكف الناس عن مصارحتك بهذا طيلة الوقت ..

كان فى أسوأ حال بسبب البرد .. قلنسوة صوفية على رأسه تغطى أذنية ، وروب صوفى سميك يستر عدَة طبقات من الكنزات ، وفى قدميه جوربان صوفيان .. إن مرضه يجعل البرد عذابًا مقيمًا ..

قال لى :

ـ « هل لك فى بعض الشاى ؟ »

ـ « ولكن قلّل الصراصير نوعًا ، فلم أعد مولعًا بها .. »

غاب فى المطبخ فترة طويلة ، وشممت رائحة شياط وسبانخ تُسلق وسمعت صراخًا وعويلاً وعواء

ذنب ، وأشياء غريبة جدًا ، ثم عاد لى بكوب شاى على صحفة ، وجلس جوارى ..

أراد أن يخلى لى مائدة صغيرة ليضعها أمامى ، لكن كان عليها تمثال ثقيل من تماثيله ، وحاول جاهدًا أن يرفعه فلم يقدر .. تطوعت أنا بحمله إلى مكان آخر بسهولة تامة ، وعدت إلى مجلسنا أمام نظراته المندهشة ..

ـ « غريب هذا ! أنت بصحة جيدة بالفعل .. »

ـ « (الدهن فى العتاقى) .. أنا لم أنته بعد .. »

قال فى كياسة وهو يقرب صحفة الشاى منى :

ـ « هذا يغرينى بأن أفتح موضوعًا مهمًا معك .. كنت مترددًا لكنك قد جئت بقدميك .. »

ـ « جئت (بكامل إرادتى الحرَة) كما يقول مصاصو الدماء .. إن مصاص الدماء لا يهاجمك إلا إذا تأكد من أنك جئت بكامل إرادتك الحرَة .. »

أبعد الشرَ بكفه ، وقال :

ـ « دعنا من هذه السيرة المنحوسة ، وقل لى : هل أنت مستعد للزواج ؟ »

نظرت له فى حيرة ، ولم أقل شيئًا ، واعتبرها هو علامة على القبول ، فأردف وهو يرتجف من البرد :

- « إنهـا زميلتى .. رسـامة قابلتهـا فى (بينـالى الإسكندرية) .. فتاة ممتازة بحقَ ومناسبة من جميـع الوجوه .. »

- « يا سلام ! ولماذا لا تتزوجها أنت ؟! »

اصطكت أسنانه ، وقال :

- « فى حالتى الصحية هذه أنا بحاجة إلى ممرضـة لا إلى زوجة .. أما أنت فصحتك ممتـازة ، ولن تجنـى على من ستكون زوجتك .. »

تذكرت العناية المركزة وآلام الصدر وصفير الربـو .. كل هذا يعتبره (عزت) صحة ممتـازة .. لكنـه ليس كاذبًا إلى هذا الحدَ .. حقًا لم أشـعر بهذه الصحـة مـن قبل ..

قلت له فى فضول :

- « والسن ؟ »

- « خمســة وثــلاثـون .. إنهـا سـنَ ناضـجة .. ولا تسألنى طبعًا عن سر عدم زواجها حتى الآن .. »

ـ « طبعًا .. إما أنهـا قبيحـة كسـحلية (البـازيليك) وإما هى (لم تجد الرجل المناسب بعد) .. »

ـ « وهى ليست قبيحة كسحلية الـ .. البـا .. هذه فماذا نستنتج ؟ »

فكرت فى الساعات المريـرة الوحيـدة التـى قضيتهـا فـى دارى ، وللمـرة الألـف شـعرت بـأن هـذا الشـرك يستحق أن أنزلق فيه ..

ـ « دعنى أرها أولاً .. ودعها ترنى أولاً .. »

ـ « هذا من حقك طبعًا .. »

وراح يرتجف قليلاً ، ثم قال :

ـ « يجب أن تراها فى (الإسكندرية) .. إنـها تعيـش هناك مع أهلها .. »

ـ « وهل لديها عمل حكومى ؟ »

ـ « إنها موظفة فى شىء ما بالثقافة الجماهيرية .. ثمة معرض تشارك هى فيه الأسبوع القـادم .. أعتقـد أنك ستهتم بالفنون التشكيلية فى الفترة القادمة » .

قلت وأنا أرشف الشاى حالمًا :

ـ « لقد كنت مهتمًا بالفنون التشكيلية طيلة حياتى !»

وحين عدت لشقتى فى الثانية عشرة مساء ، كنت أفكر .. معنى ما حدث هو أن تأثير الشباب لم يكتف بجسدى ، بل بلغ روحى .. روحى التى بدأت تكتسب شبابًا خاصًا بها .. فلو سمعت اقتراح (عزت) هذا منذ أسبوع لسخرت منه ، وسكبت الشاى على رأسه ..

لكن الاقتراح لم يبدُ اليوم سخيفًا إلى هذا الحدّ ..

سأسافر إلى (الإسكندرية) خصيصًا .. يالها من معجزة ! ومن يدرى ؟ ربما لو نجح اللقاء أسافر إلى (دمياط) يومًا لانتقاء صالون ! إن هذا يعدّ نوعًا من الخيال العلمى لكن كل شىء جائز هذه الأيام ..

سأنام الآن وقد فرغت من هذه السطور ..

السبت ٢٥ إبريل :

لا يوجد ما أكتبه اليوم ..

الأحد ٢٦ إبريل :

بانتظار تحسن الجوّ فى (الإسكندرية) .. إنها نوّة

شرسة لكن من الواضح أنها آخرها .. يقولون إن اسمها (نوَة عوَة) أو شىء من هذا القبيل .. لكنهم يضيفون فى ثقة : (عوَة .. آخر نوَة) .. لابد أنهم سمَوها بهذا الاسم كى يستقيم السجع لا أكثر !

الاثنين ٢٧ إبريل :

مزيد من الشعيرات السوداء وتجاعيد أقلَ .. لو استمرَ الأمر بهذا الشكل لتحولت إلى (إلفيس بريسلى) بعد أسبوعين ..

الثلاثاء ٢٨ إبريل :

إنها الثانية صباحًا .. لقد عدت من الإسكندرية من ساعتين ..

رباه ! لقد كانت تجربة ثرية بحق ..

ذهبت مع (عزت) إلى المعرض فى السابعة مساءً ، وكان هو قد أخبر الرسامة بقدومه ، ولم تكن هى لتفوَت فرصة لقائه والترحيب به فى معرضها .. وقد تفحصت لوحاتها بنهم قبل قدومها ، فوجدت أنها تقليدية جدًا ما زالت فى مرحلة رسم النهر ، والفلاحات اللاتى

يملأن الجرار ، والبطة السعيدة السابحة .. وكان هذا على كل حال أفضل من لوحات زملائها ، المليئة بأكاليل الغار ومداخن المصانع والتروس العملاقة والفتوات الممسكين بالمفاتيح الإنجليزية فى أيديهم ..

ثم جاءت .. وكانت شيئًا رقيقًا هشًا شديد الخجل والعذوبة ، فصافحتنا وجالت بنا أرجاء المعرض ، وكان معها أخوها .. وهو شاب مهذب لطيف الحاشية .. أناس طيبون حقًا و (عزت) لم يكن أحمق على الإطلاق .. على أن أكثر ما فتننى فيها كان نظرتها .. النظرة الهفهافة الخجول التى لا تجرؤ على إطالة النظر إلى شىء .. كلمسة رضيع على وجهك وأنت تميل على مهده تلاعبه ..

قررت أن أتكلم ، فبدأت أقول كلامًا راقيًا عميقًا جدًا عن الفن وعلاقته بالحياة .. كلام لا يعيبه إلا أننى لم أفهمه أنا نفسى ..

ونظرت فى ساعتها ، وقالت إننا أضأنا ليل الإسكندرية ، لكنها مضطرة إلى الرحيل لأن الوقت تأخر ..

وهكذا انصرفت مع أخيها ، وأعتقد أن انطباعها لم يكن سيئًا ..

سألنى (عزت) فى كياسة :

ـ « ما رأيك ؟ أتناسبك ؟ »

قلت فى شرود :

ـ « المشكلة الوحيدة هى أن هذه الزهرة لا تستحق أن تعاقب بى ! »

ـ « لا بد أنها تستحق .. إن كلاً منا له أخطاؤه الشنيعة ! »

ثم دار بعينيه فى المعرض ، وقال بلهجة الإغراء .

ـ « هل تريد أن ترى تماثيلى » .

كدت أقول له إنه لا وقت لدىَّ لهذا الهراء ، ثم وجدت أن هذا سيكون فظًا بعد كل معاناته من أجلى ..

★ ★ ★

عشـــرون !

الأربعاء ٢٩ إبريل :

لا يوجد ما يستحق الكلام عنه اليوم ..

الخميس ٣٠ إبريل :

اليوم قد مرَ أسبوعان على بدء التجربة ، وكما وعدت المعالج الرومانى فقد ذهبت إلى المصوَر ، وطلبت التقاط صورة لى .. بالتأكيد سيبدو الاختلاف واضحًا ، لو كان يبغى أن يضع وجهى فى إعلان من نوع (قبل ـ بعد) ..

لقد صار أكثر شعرى أسود ، وبدأ ينمو ببطء غازيًا الرقعة الصلعاء التعسة .. كثيرون فى العمل لاحظوا الفارق ، وافترضوا أننى أصبغ شعرى ..

« إنهم يقولون .. ماذا يقولون ؟ دعهم يقولون .. » هذا هو ميثاق اللامبالاة المتعالية الذى سأتمسك به إلى النهاية ..

ما زال ضغط دمي في تحسن ، وهو يدنو بسرعة من الرقم السحرى (١٢٠/٨٠) الذى لم أحظ به منذ كان عمرى خمسة وعشرين عامًا ..

لاحظت شيئًا آخر .. هو أن قيادتى السيارة صارت أكثر جموحًا وجرأة ، ولم أعد أقود بهذا البطء المرتجف الذى يضايق من يسير خلفى .. فلا تمرَ دقيقة إلا ويتجاوزنى بصوت الـ (فروووم !) المتذمر الذى يقول : فلتذهب إلى الجحيم بذعرك هذا .. لن أقضى حياتى ماشيًا وراءك !

و ... و ... ملايين التفاصيل الصغيرة التى أحتاج إلى مجلدين كى أحكيها .. تلك التفاصيل التى تعنى الشباب .. بكل ما فيه من سحر ..

أعطيت اليوم موافقة مبدئية لـ (عزت) كى يتكلم فى موضوع الرسّامة السكندرية هذه ـ اسمها (نجلاء) ـ فقال لى :

ـ « ألا تدير الأمر فى ذهنك قليلاً ؟ لقد كان اللقاء يوم الثلاثاء لا أكثر .. إن التمهل فى هذه الأمور ليس حماقة .. »

قلت فى نفاد صبر :

ـ « بل الحماقة هى ألا تعرف الفرصة حين تقابلها .. »

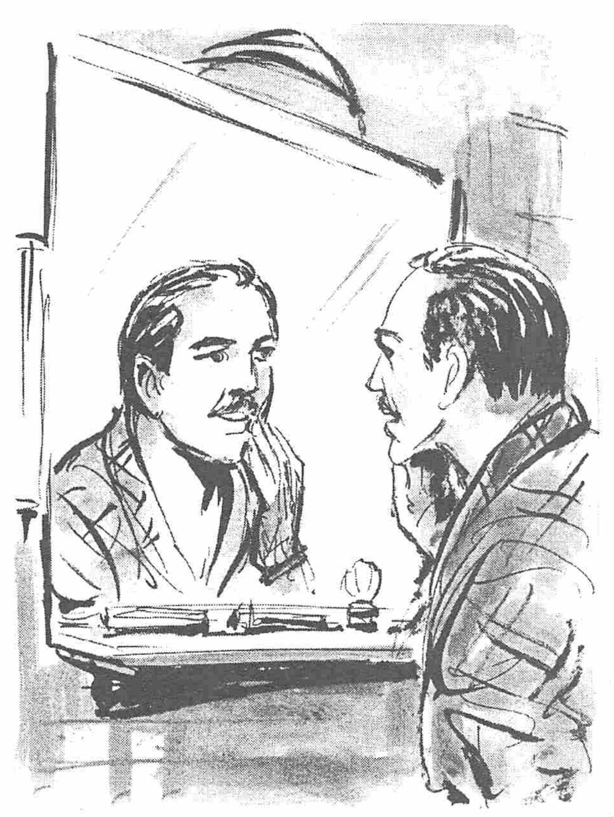
هزَ كتفه بإيماءة من طراز (هـذا ـ شأنك ـ على ـ كل ـ حال) ، وعدنى بأن يقدم لها الاقتراح غدًا ..

الجمعة ١ مايو:

فى العاشرة صباحًا اتصلت بى د. (كاميليا) تسألنى عما فعلت بصدد الكتاب ، فوعدتها أن أخبرها تفصيلاً فى لقاء .. وليكن السابعة مساءً .. (المشكلة هى أننى لا أذكر أين وضعت تلك الأوراق الحمقاء) ..

ثم إننى دخلت الحمام فحلقت ذقنى بعناية وتضمخت بعطر فاغم (كما يقولون) ، وسرنى أن وجهى فى المرآة لم يعد كابوسًا خارجًا من دهاليز (هـ . ب . لافكرافت) أديب الرعب الشهير .. الحقيقة هى أن وجهى أصبى بكثير .. لا أستطيع العثور على تصعيدة واحدة ، ويبدو أن الصلعة العتيدة فى طريقها إلى التلاشى ..

لو استمر الأمر هكذا ، فلسوف يمنعوننى من دخول الكلية ، ولسوف يسألنى بواب البناية عن وجهتى حينما أحاول اجتياز الباب .



وسرنى أن وجهى فى المرآة لم يعد كابوسًا خارجًا من دهاليز (هـ . ب . لافكرافت) أديب الرعب الشهير ..

وفى السابعة مساءً لكم أن تراهنوا على أننى كنت هناك .. اجتزت مدخل الكافتريا ويداى فى جيب البذلة الكحلية التى كانت تجعلنى فاتنًا .. لم يعد هذا رأيى الحالى ، وأعتقد أن الخلاص منها هدف لا بأس به ..

جلست فى موضعى المعتاد ، وطلبت كوبًا من العصير ..

بعد دقائق جاءت د. (كاميليا) .. غريب هذا ! لكم هى مهملة فى ثيابها ! وما أكثر التجاعيد على وجهها .. إنها شمطاء بحق .. لا أدرى كيف غابت عنى هذه الحقيقة ، وشعرت بشىء من خجل لأننى أجلس معها هذه الجلسة المنفردة ..

بدا الذهول على وجهها كالعادة ، وهتفت وهى تتأمل وجهى :

ـ ما الذى تفعله بالضبط ؟ إننى تعرفتك بصعوبة ! »

ثم جلست ومالت برأسها المشعث نحوى ، وتساءلت :

ـ « هل أنت واثق من أنك لم تبع روحك للشيطان ؟ »

قلت فى استهتار :

ـ « إن ثقافتك الأوربية هذه قد أفسدت تفكيرك .. لو نسيت (جوته) قليلاً لوجدت أن الأمر ليس بهذه الغرابة .. لنقل إننى تعلمت كيف أعيش وأستمتع بحياتى .. »

ـ « أنا لا أمزح .. لقد صار الأمرغريبًا .. غريبًا إلى حدَ أنه مخيف .. »

طلبت لها بعض العصير ، ثم استرخيت فى مقعدى منتظرًا أن تبدأ الكلام ..

قالت :

ـ « هل قرأت الكتاب ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

ـ « وهل هو معك ؟ »

ـ « لا .. ثمة أجزاء أريد أن أقرأها مرتين .. »

ـ « ليكن .. وما هو رأيك النهائى ؟ »

ـ « كتاب مملَ .. آسف أن أقول هذا .. لكنه كابوس حقيقى ! »

كانت قد اعتادت سخريتى وآرائى الغريبة ، لكن شيئًا فى لهجتى جعلها تقلق .. اتسعت عيناها وراء عويناتها ، وزمت شفتيها فى عصبية ، وقالت :

- « إلى هذا الحدَ ؟ هل قرأت الجزء الخاص بالوجودية ؟ كنت أحسبه ممتعًا .. »

حاولت تذكر هذا الجزء فلم أستطع .. كانت لى آراء جيدة فى الموضوع ، لكنها ذابت وتلاشت .. لا أذكر سوى أنه كتاب سخيف مرهق .. وبحثت عن كلمات ذات معنى أقولها فلم أجد ..

قلت وأنا أرشف ما بقى فى كوبى :

- « كتاب شديد الإملال .. لا أدرى لماذا تصرَين على أن تكتبى أصلاً ؟ »

كانت مصرَة بالفعل ، لكن على المزيد من الاستجواب :

- « والجزء الخاص بالرواقيين ؟ والردَع لى (مارتن بوبر) ؟ »

خفت أن يكون هذا شركًا ثقافيًا ، فلم أعلق على اسم بعينه ، وقلت :

ـ « كله .. كله سخيف .. لا أخص بالذكر أجزاء بعينها .. »

بدت عليها علامات الضياع والحماقة، تلك العلامات التى زاد من قسوتها أنها كانت تحاول التظاهر باللامبالاة المتعالية .. إنها آراء ثقافية عقلانية باردة لا دخل للعواطف فيها ، لكنى كنت أعرف أنها تتأرجح بين رغبتين : رغبة فى البكاء الهستيرى ولطم الخدين والتوسل لى كى أمتدحها ، ورغبة فى صفعى مع البصق فى وجهى ثم تقول : ماذا تعرفه أنت عن الفلسفة أيها الأجوف ؟

محتفظة بقناعها الحضارى قالت :

ـ « ولم تحبَ جزء (كيركجارد) ؟ »

ـ « كان سخيفًا جدًّا .. »

ابتسامة منتصرة عبرت شفتيها ، وقالت فى تروٍ :

ـ « لكنى لم أكتب حرفًا عن (كيركجارد) ! »

كما كنت أتوقع بالضبط .. هززت وجهى فى سأم وقلت :

ـ « لم تعد الفروع مهمة ما دام أصل الشجرة نخرًا واهيًا .. »

ساد صمت ثقيل لبرهة ، وأدركت كم هى تمقتنى .. بعد قليل قالت :

- « فى الحقيقة كنت أظن أنك ستعطى الكتاب اهتمامًا أكثر .. يخيل إلىّ أنك تعاملت معه بشىء من الخفة ، وكان على أن أتوقع هذا وأنا أعرف كراهيتك للفلسفة ».

تبًّا ! فلينته هذا الموقف السخيف سريعًا ..

قلت لها :

- « أنا أحب الفلسفة، لكن حين تجىء من سادتها ! »

والحقيقة هى أن العدوانية التى تسربت إلى نفسى لم يكن لها سوى سبب واحد غريب .. أننى وجدت (كاميليا) أقبح مما أذكره عنها ، وتصرفت بأسلوب الرجل الذى يحاول الخلاص من متسول لزج يدس رأسه الأشعث فى نافذة سيارته ..

ما سرّ هذه القسوة ؟ لا أدرى .. لكننى صرت أقل استعدادًا للمجاملة ..

وحين انتهت الجلسة ، ودعتها ووعدتها بأن أحضر لها الكتاب سريعًا ..

سيسعدنى الخلاص من هذا الكابوس سريعًا ..

السبت ٢ مايو :

الحاجة (فتحية أبو الروس) ..

فى الخمسين من عمرها ، تعانى فقر دمٍ بالغًا لم يتضح سببه لنا بعد ، لكننا كنا نعرف شيئًا واحدًا : هذه المرأة تعانى بشدة .. إنها تجاهد من أجل الهواء ، عاجزة عن الرقاد ، ولون بشرتها يحاكى لون هذه الورقة ..

قمت بقياس ضغط دمها ، فوجدته منخفضًا .. قلت للطبيب المقيم الواقف معى جوار فراشها :

ـ « إنها على حافة الصدمة .. ماذا تنتظر لتعطيها المحاليل الوريدية ؟ »

قال فى شىء من حياء وهو يتراجع خطوة :

ـ « قلبها يا سيدى .. إن حالة قلبها لن تتحمل المحاليل كما تـ .. »

هنا صعد الدم إلى رأسى .. ربما أقبل الجهل لكنى لا أقبل الوقاحة ، وفى عصبية صحت :

- « أرجو أن تصحح لى مفاهيمى .. من هو الأستاذ ومن الطبيب المقيم حديث الخبرة ؟

ابتلع ريقه .. كان يفضل أن يصمت لكن الأمر كان أقوى منه ، فقال :

- « معاذ اللَّه أن أعترض .. لكن سيادتك لم تصغ إلى رئتيها .. إن حالتهما تنذر بـ .. »

وأنا قد أقبل الوقاحة لكنى لا أتحمل الانحطاط ، لهذا صحت بعصبية أكثر :

- « إما أن تبدأ فى إعطائها محلولاً وريديًا الآن - وليكن (الدكستروز) - وإما أن تبدى الشجاعة ذاتها فى أثناء التحقيق معك .. »

واستدرت كى تكون لى الكلمة الأخيرة ..

وبعد ساعة سمعت طرقة على باب مكتبى ..

كان هذا هو د. (رأفت) صديقى ، وقد حيانى وقال كالعادة :

- « ما شاء اللَّه ! عينى عليك .. »

لكنى لاحظت أنـه يريد إخراج كلمـة محشورة فـى حلقـه ، ولا تريـد أن تخـرج ، ثـم فـى النهايـة تحـامل وقال متحاشيًا نظراتى :

ـ « هل أمرت بإعطاء مريضـة فقر الـدم لتـرين من (الدكستروز) ؟

قلت فى سخرية :

ـ « الأخبار تنتشر بسرعة هذه الأيام .. »

قال فى كياسة :

ـ « لمـاذا ؟ أنـت تعـرف أن رئتيهـا ليسـتا علـى مـا يـرام .. إن شـيئًا كهـذا سـيؤدى إلـى تفـاقم هبـوط القلب .. ربما إلى (الأوديما) الرئوية .. »

صمت وقد تحولت إلى بركان آدمى :

ـ « هل جرؤ الفتى على مخالفة أوامرى ؟ »

رفع كفه ليهدئ من روعى ، وقال بذات الكياسة :

ـ « لم يحدث .. أنا مـررت علـى فراشـها ووجـدت المحلول معلقًا ، ولمتـه على ذلك .. لكنه قال إن هـذا

أمر مباشر منك .. لقد سمحت لنفسى بأن أوقف المحاليل ، وأحقنها بالـ (فروسيمايد) المدرَ مع خلايا الدم الحمراء المحزومة .. وبالطبع قمت برفع ضغطها بأساليب أخرى غير المحاليل .. »

طبعًا لم يحدث هذا .. معرفتى بالبشر تقول إن هذا لم يحدث ..

أستطيع أن أرى الطبيب المقيم يهرع مولولاً إلى د. (رأفت) فى مكتبه ، ويقول له فى هلع : « افعل شيئًا .. د. (رفعت) طلب كذا وكذا .. » ، فينهض (رأفت) ويربَت على كتف الفتى قائلاً : « سأتصرف أنا فلا تقلق .. لكن لا تنفذ الأمر طبعًا .. أحسنت إذ أخبرتنى .. » .

قلت فى ضيق لـ (رأفت) :

ـ « كيف تسمح لنفسك بمعارضة ما كتبت من علاج ؟

آى آى ! إنه الصدام ! هكذا قال لنفسه ، وابتلع ريقه وقال :

- « (رفعت) .. نحن نتحدث عن حياة إنسان ها هنا .. لا مجال للمجاملة أو الكبرياء الشخصية .. أعتقد أن ثمة خطأ ما حدث منك ، ونحمد اللَّه أن ضررًا لم يقع .. الواقع أنك لست على ما يُرام هذه الأيام .. »

قلت فى ضيق كالعادة :

- « إننى بخير حال هذه الأيام بالذات .. »

- « صحيًا .. نعم .. لكن شيئًا من التهور والاستخفاف بدأ يتبدى فى تصرفاتك .. أحيانًا أشعر أنك .. »

وبحث عن لفظة مناسبة ، ثم قال :

- « أنك فى الخامسة والعشرين من العمر ! »

كان محقًا فى الرقم على الأقل .. بالفعل أشعر أننى فى سن الخامسة والعشرين أو أكثر قليلاً .. لكنه - فيما عدا هذا - مخطئ على طول الخط .. مخطئ وبالتأكيد وقح ..

وقبل أن أردَ قام هو بـ (التاكتيك) الشهير فى المشاجرات : انصرف .. وظللت وحدى أغلى .. لن يمرَ هذا الحادث على خير .. سأعرف كيف أنتقم وكيف أؤدب الشاب المستهتر ..

الأحـــد ٣ مايـو:

مرَ علىَ (عزت) فى التاسعة مساءً ، ليخبرنى بأنه قد رتَّب لى لقاء فى المعرض إياه مع الرسامة الشـابة (نجلاء) .. لا بد أن نتبـادل بضع عبارات قبـل أن أستطيع زيارة أهلها ..

فى المعتاد كنت سأجد أن الذهاب إلى (الإسكندرية) ثلاث مرات فى أسبوع واحد أمر عسير ، لكنى كنت الآن نشيطًا كالبراغيث .. وافقته على الفور ، وقررت أن يكون اللقاء غدًا فى السادسة مساءً .. وهو لقـاء لتحديد لقاء ..

الاثنين ٤ مايـو:

رحت أتأمل اللوحات فى المعرض مع (عزت) بانتظار مجيئها .. ولا أدرى لمـاذا شعرت بأن الرسوم جميلة بالفعل .. لماذا لم ترق لى حين رأيتها منذ أسبوع ؟

بعد قليل وصلت (نجلاء) .. كانت مرتبكة بحـق ، وبدا التكلف واضحًا على كلماتها وحركاتها .. شتان بين أن تعرف ولا تعرف ..

كانت لى موقف مماثلة مع د. (محمد شاهين) .. لكن الرجل ـ تذكرون ـ فضيحة مجسمة لا يكفَ عن لفت الأنظار ، لكن (عزت) كان ذكيًا كيَسًا بشكل واضح .. وبعد دقيقتين لمح صديقًا له من بعيد ، فصاح يناديه ، ثم هزَ رأسه لنا فى تهذيب معتذرًا لأن « لى كلمتان مع هذا الفتى » ، وتركنا وابتعد ..

ظللنا صامتين لفترة لا بأس بها ، ثم قطعت الصمت قائلًا :

ـ « إن لوحاتك جميلة جدًا .. »

احمرَ وجهها كالطماطم ، وأطرقت وهمست :

ـ « هذه مجاملة .. الأستاذ (عزت) قال لى إنك كنت ترسم .. هل كنت مولعًا بالفن الكلاسيكى أم التجريد ؟ هل ثمة مدرسة معينة تحبها ؟ »

ـ « طبعًا .. مدرسة (الأورمان) الإعدادية ! نياهاهاهاه ! »

دعابة ظريفة ، لكنها اكتفت بأن ابتسمت ، ومن جديد سألتنى :

- « أتحدث جدًا .. هل تحب مدرسة معينة ؟ »

الحقيقة أن اسم أية مدرسة لم يخطر ببالى لحظتها ، فقلت وأنا أنقل ساقىَ كاشفًا عن توترى :

- « كلها تعجبنى .. كلهم بارعون بحق .. »

بعد قليل بدأ الكلام يتطور إلى موضوعات أكثر حرجًا .. مثل :

- « لماذا يتزوج الرجال فى رأيك ؟ »

هذه الحمقاء تعتبر أنها فى حوار صحفى مع (ألبير كامى) .. والمفترض أن أقدم لها ردًا مقنعًا .. قلت لها :

- « يتزوج الرجال حين لا يجدون شيئًا أفضل يفعلونه .. »

بدت لها دعابة طريفة فأحمرَ وجهها من قليل .. وفهمت أن احمرار وجهها هو نوع من القهقهة .. ويبدو أنها اكتفت بهذه الإجابة ، فبدأت تسألنى عن رأيى فى الأوضاع السياسية للبلاد ، وعن مستقبل التجربة الاشتراكية ، وعن الحرب القادمة مع (إسرائيل) ..

إنها تحسب نفسها تحاور (أحمد بهاء الدين) على ما يبدو .. قلت لها ما استطعت قوله ، ثم أنهيت الكلام بلهجة تقريرية :

ـ « أنا راغب فى التقدم لك .. فمتى أستطيع الذهاب إلى دارك ؟ »

لم تعلَق .. يبدو أنها لم تتوقع هذا الهجوم ..

هنا أنقذها (عزت) إذ جاء مترنحًا يرتعش من البرد ، وقال بلا مناسبة :

ـ « معذرة فهذا الفتى ثرثار حقًّا .. إن (نجلاء) أختى يا (رفعت) ، وأنا لا أطيق مضايقتها .. لعلك لم تعطها حَمَامك الثقافى الشهير .. إن الرفق خصلة حميدة خاصة إذا كان بقارورة كهذه .. »

ـ « اطمئن .. »

قلتها فى غرور ضاحك ، ثم إن الفتاة هزَت رأسها فى أدب طالبة الانصراف ، فحياها (عزت) ..

ووقفنا بضع ثوان تصطك أسناننا بردًا .. وفى النهاية قال لى :



قلتها فى غرور ضاحك ، ثم إن الفتاة هزت رأسها فى أدب طالبة الانصراف ، فحياها (عزت) ..

ـ « ما رأيك ؟ »

ـ « لم تبد كبيرة السن إلى هذا الحدَ فى لقائنا الأول .. »

ـ « كبيرة ؟ إنها زهرة لا تشيخ أبدًا .. والآن سأعرف منها موعد اللقاء فى دارها ، وعليك ـ أيها الذكى ـ أن تذهب وحدك هذه المرة .. أنا لا صفة لى هنا .. »

ـ « هل سنعود إلى القاهرة الآن ؟ »

ـ « بالتأكيد .. هل لديك خطط أخرى ؟ »

ـ « فلنتنزه ! لنمش على (الكورنيش) قليلاً .. »

ـ « فى هذا الزمهرير ؟ حقًا أنت تغيرت يا (رفعت) .. كنت أعرف شخصًا يشبهك لا شىء يغريه فى الحياة سوى فراش دافىء .. »

وقد كان ما اقترحته ..

الثلاثاء ٥ مايو :

عند الغروب جاءنى (عزت) ، وكان وجهه متحفظًا .. قال لى :

- « فيم تحدثتما بالضبط أمس ؟ »

- « فى كل ما يخطر ببالك .. »

هزَ رأسه فى حيرة ، وقال :

- « لماذا لم تبهرها بعقليتك الجبارة ؟ يبدو أنك بالغت فى المزاح بعض الشىء هذه هى مشكلتى معك .. »

تساءلت وقد بدأ الموضوع يتضح لى :

- « لم أرُق لها .. هه ؟ »

- « شعرتْ بأنك ضحل إلى حدَ ما ، وربما خاوى العقل أيضًا .. قالت إنها شعرت بأنها تكلم من يصغرها بعشر سنوات علىٍ الأقل .. إن المرأة تحب أن تشعر بأن زوجها أكبر سنًا أو أرجح عقلاً أو أوسع تجربة .. أو - على الأقل - أثقل جيبًا .. ومن الواضح أنك لم تعطها الإيحاء الذى كان عليك أن تعطيه .. »

قلت مغتاظًا :

- « تبًا لها ! لم يكن هذا نقاشًا بل كان استجوابًا .. أنا أرفض أن يختبرنى أحد .. معنى هذا أن زيارتى لدارها قد ألغيت ؟ »

ـ « طبعًا .. لا يوجد نصيب »

ـ « سحقًا لها ! أنا أيضًا لم أر فيها أى جمال .. إنها قد خطت أول خطوة فى طريق العنوسة ، ولسوف تستكمله بلاشك .. وهناك شىء آخر : أعتقد أن هذه الفتاة تميل إليك ! »

ـ « (رفعت) ! هل جننت ؟ »

ـ « الأمر واضح .. هى لا تأتى إلا حين تدعوها أنت ، ولا تثق إلا بمن تثق أنت به .. (نادانى حبيبى جيت بلا سؤال) كما تقول (فيروز) ..

الأمر واضح يا أخ (عزت) وإننى لأتمنى لك التوفيق ! »

لم يجد الكلمات كى يعبِّر عن غيظه ، وراح يرتجف ويترنح ، وازداد وجهه سوادًا حتى صار صالحًا لوضعه فى المراجع الطبية تحت اسم (مرض أديسون) .

ـ « (رفعت) أنت تهينها وتهيننى .. ماذا دهاك ؟ تتصرف كطفل أخرق .. ثمة حدود للكلام يحسن التوقف عندها .. أنا الذى .. »

ـ « صمتًا ! »

قلتها ودفعته دفعًا خارج شقتى ، وأغلقت الباب ..

ألن ينتهى كل هذا الذباب ؟ ألن ينتهى أبدًا ؟

صبرًا أيتها الرسامة السكندرية البلهاء .. ستدفعين ثمن رفض (رفعت إسماعيل) غاليًا .. أنا لا أرفض .. هذه حقيقة يجب أن تعرفيها ..

أنا لا أرفض ..

لكنى أرفض متى أريد ..

* * *

ثلاثون !

الأربعاء ٦ مايو:

صباح العسل !

صحوت من النوم فى خير حال .. مرح غامر وحبّ مجنون للحياة يطيح بتوازنى .. ذهبت كى أحلق ذقنى فوجدت فى المرآة عجبًا ..

لم يعد فى رأسى موضع خال من الشعر .. شعر أسود جميل لامع .. وجهى وجه صبى .. والغريب أن شاربى الكثّ لم يعد هناك .. صارت فى مكانه بقعة من الزغب الذى لم يستقر بعد على لونه النهائى : البنى أم الأسود ؟

ولم تكن لى لحية على الإطلاق ..

يذكرنى هذا بصورة قديمة لى جوار خالى .. وقد كتب عليها (ستوديو آرت بالمنصورة) .. كان تاريخ هذه الصورة هو عام ١٩٤٠ .. بينما قنابل (هتلر) تهوى

فى سماء القاهرة ، و (العقاد) قد فرَ إلى (أسوان) كى لا يعتقله النازيون ..

رحت أصفر لحنًا مرحًا ، وفتحت الراديو لأسمع صوت (عبد الحليم حافظ) الرخيم .. ما أجمل أن تملأ المكان والزمان ! ما أجمل أن توجد !

لكن هناك مشكلة .. عسير أن أذهب إلى المستشفى بهذا المظهر ..

لن يصدق أحد أننى (رفعت) .. فكرت فى شارب مستعار وبعض المسحوق الأبيض ليبدو كالشيب ، لكنى وجدتها فكرة بلهاء ..

قررت أن أنزل لأشترى إفطارًا .. إن جوعًا شديدًا يمزقنى الآن .. لم تنفتح شهيتى لهذه الدرجة من قبل ..

نزلت إلى الشارع أصفر وأتبختر ..

كان هناك غلام فى طريقه للمدرسة ـ التى لن يصلها غالبًا ـ يلهو بكرة (شراب) ، وقد غاب تمامًا عن الوجود .. مشيت وراءه وقلت فى مرح :

ـ « بكعبك يا كابتن ! »

نظر للوراء فرآنى ، وبلا مبالاة سدد الكرة نحوى . فقمت بـ (تنطيقها) عدة مرات ، ثم باصيتها له ..

قضينا عدة دقائق نتبادل الكرة ، ثم بدا عليه الذعر وسألنى :

- « كم الساعة الآن ! »

نظرت إلى ساعتى .. إنها الثامنة والنصف .. قلت له ضاحكًا :

- « انتهى الأمر ! أما زالت هناك مدارس فى مايو ؟ »

لكنه لم يصغ لى ، واندفع يجرى مذعورًا حتى غاب عن عينى ..

يا سلام على رائحة الربيع ! إن مصر لا تعرف الربيع بالمعنى المتفق عليه ، ولكنه فصل من عواصف الخماسين .. الربيع فى مصر هو فصل الروائح العطرة القادمة من الحقول المحروثة البعيدة ، والتى تحرك فى أعماقك ألف عاطفة ..

وفجأة شعرت بحزن عميق .. أنا وحيد بائس منبوذ .. لا أحد يحبنى .. سأرحل إلى أقصى الأرض لأواجه قدرى .

وأموت وحيدًا ككلب عقور ، بينما فى لحظة الاحتضار الأخير سأهمس باسمها ..

من هى ؟ »

هى التى تملك كل أفكارى وأحلامى وآهاتى .. هى التى لا تعرف أنها هى .. هى التى سأحارب الغيلان من أجلها ، وأرسلها مع تحياتى لتخدمها بإخلاص .. هى .. ولكن من هى ؟

المشكلة هى أنه ليست عندى واحدة .. أنا حزين تعيس كئيب متفرد فى كآبتى .. كانت هذه الخواطر كفيلة بأن تنحدر العبرات من عينى .. وتبدل مزاجى كما تتبدل السماء عند قدوم العاصفة .. رباه ! ألن ينتهى كل هذا الألم ؟ »

اشتريت ستة ساندوتشات .. سأقتصد اليوم لأننى حزين .. إن الفول والطعمية لقادران على دفن أحزانى إلى حدٍّ ما ..

وعدت إلى الدار ، ونسيت كل هذا الحزن ، لأن شمس الربيع أشرقت من جديد فى داخلى ..

وقفت فى الشرفة أرمق الشارع .. غريب أننى لم أعتد هذا النشاط من قبل .. لقد قضيت ما مضى من حياتى فى قوقعة .

هنا وقعت عيناى على أجمل شىء فى العالم ..

كانت هذه هى (هالة) ابنة الأستاذ (زكريا) جارى ، وقد غادرت البناية قاصدة كليتها على ما أظن لأنها تحمل كتابًا فى يدها .. رباه ! إننى لأحمق هذه الحسناء تسكن على بعد أمتار منى ، ولم ألحظها قط كأنها نسيج عنكبوت أراه بطرف عينى وأنا أصعد السلم أو أهبط منه .

إنها فى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة .. أى أنها - رسميًا - فى عمر بناتى .. لكن من الناحية الفسيولوجية المستجدة علىّ ، أشعر ، بأنها أكبر منى بثلاثة أو أربعة أعوام .. (أبله) لكنها لم تكبر بعد لتصير (طانط) ..

نعم .. الحقيقة هى أننى كنت أسترجع كل مشاعر وأحاسيس مراهقتى .. ويبدو أننى من ناحية الشكل والأفكار لا أتجاوز ستة عشر عامًا .

لكنها بالتأكيد ستنبهر بى لو صارحتها بحبى - نعم ..

كنت الآن أهيم بها حبًا فجأة ـ باعتباري أستاذ جامعة ناضجًا خبر الدنيا وخبرته ..

أنا الآن أكتب هذه الخواطر فى مفكرتى ، ولا أدرى لماذا أجد بعض الصعوبة فى التعبير عن نفسى .. لم تعد اللغة تـ .. تـ (تهاودنى) كما كانت ..

إلى متى يستمر هذا التبدّل ؟ إلى متى سأظل أصغر ؟ فى الغالب هذه هى نهاية التجربة ، وهى نهاية رائعة جدًا .. ما المشكلة ؟ سيكون علىَ أن أعلم زملائى كيف يعتادون شكلى الجديد ، وكيف لا يسألون ..

المهم الآن أن أدبّر موضوع الغداء لأن الجوع قد بدأ يؤلمنى ، و (عصافير بطنى تزقزق) ..

الخميس ٧ مايو:

أحب الخميس ! من طفولتى أحبَ هذا اليوم لأن غدًا الجمعة إجازة .. والغريب أن الجمعة لا يكون ممتعًا لأنكَ تقلق بخصوص السبت غدًا ..

لكنى الآن أجد شيئًا مبهرًا .. أنا فى سن المراهقة لكن ليس علىَ أن أذهب إلى المدرسة ، أو أتلقى توجيهات أهلى ، أو أطالب بالمصروف ..

أنـا المراهق الوحيد الـذى يعيش وحـده ، ويملـك (فلـوس) ، ولـه وظيفـة مهمـة .. إن المستقبل كلـه ملكى .. (*)

شعرت بالسعادة فرحت أجرى فى الصالة وأتشقلب ، وأتنطط فوق المقاعد .. ثـم فتحت الراديو على أغنية لعبد الحليم حافظ ..

بعد هـذا جلست أكتب (جـواب غرامـى) لحبيبتـى (هالـة) .. بـالطبع لـم أجـد حرفًـا أقولـه .. (أنـا أحبـك يـا حبيبتـى حـبَ ملـك عليَـا فـؤادى) .. لا .. لا .. غير معقول ..

كـانت لـدىَ كتـب كثيرة لا أعرف فائدتها .. أعـوذ باللّـه ! عنـاوين تجعـلك تقشـعرَ .. (تـاريخ تحضـير الأرواح) .. (الوجود والعدم) .. (مصير إنسـان) .. (أرخص ليالى) .. (بلابل من الشرق) .. ياه ه ! كيـف كنت أجد الصبر كى أقرأ هذا الكلام (الدبش) .. كـانت هناك كتب كثيرة بالإنجليزية ، وقد لاحظت أن إنجليزيتى لم (تعود) على ما يُرام .. فلم أفهم عن ماذا تتكلم ..

(*) ستكون اللغة بدءًا من هذا الجزء ركيكة مليئـة بالأخطاء النحوية ، وقد وضعتها بين قوسين على كل حال .

أخيرًا وجدت ديوان شعر لـ (أبو القاسم الشابى) ففتحته وبحثت عن (كلام حبَ) حتى وقعت عينى على قصيدة معينة ، فكتبت منها سطرًا أو سطرين ، ووقعت تحتها (حبيبك رفعت) .. ووجهت الخطاب إلى (نور عينى وحبيبة قلبى هالة) ..

الآن كانت هناك مشكلة إرسال الخطاب .. وقد حلَت نفسها لأن (هالة) كانت فى الشرفة عصرًا ، وكان بوسعى أن أقذف الخطاب .. قمت بلفه حول نفسه وأمسكته بمشبك غسيل ، ثم (نشنت) بعناية ، وقذفته ليقع فى الشرفة عند قدميها .. لاحظ أن شرفتها تقع تحت شرفتى مباشرة ..

ودخلت بسرعة قبل أن ترانى ، ورحت أضحك و (أنط) فرحًا .. أما أنا !

بعد هذا نزلت إلى الشارع ..

كانت الـ (هدوم) الموجودة عندى قديمة جدًا ، ولا تمشى مع (الموضة) ..

لقد كان ذوقى فى الهدوم (زىَ الزفت) .. لكن الواقع تغير ..

ذهبت إلــى أحـد المحــلات فاشــتريت (قميــص) مشجَّر ، و (بنطلون) واسع القدمين (شارلستون) حسب الموضة .. هكذا أنا ابن السبعينات حقًا ..

وذهبت للحــلاق كى يصـفف شعرى ويكويه لينسدل على كتفىَ .. مازال لم يصل لهذا الطول ، لكن بالصبر يهون كل شىء ..

والآن تـرون (رفعت إسماعيل) الجديـد .. يقـف بثيابـه زاهيـة الألـوان علـى الناصيـة ، يطوِّح سلسـلة مفاتيحه ويمضغ (لبانة) ..

إن التطورات الأخيرة فى حياتى عظيمة جدًا ..

* * *

وعندما جاءت الساعة الحادية عشرة مساءً قررت أن (أتفسـح) بالسـيارة قليـلاً .. أنا أول مراهق يملك سيارة تحـت تصـرفه لهـا رخصـة ، وهـو نفسـه يملـك رخصة قيادة .. صحيح أنهـا عتيقـة جدًا ولـن تعجب البنات ، لكنها سيارة على كل حال ..

لحســن الحظ لم يكن خفير الجراج موجـودًا عنـدما

أدرتها .. احتككت بجانب السيارة التى على يمينى ، لكننى قلت إن صاحبها لن يعرف الفاعل أبدًا .. لو حدث هذا من أسبوعين لوقفت وملأت الدنيا صراخًا ، ولرحت أبحث عن صاحبها لأقول له بكل احترام : « أنا فعلت هذا .. طلباتك ؟ »

لكن الأمور تغيرت .. لم أعد ذلك العجوز الأحمق ..

وانطلقت (أمريكانى) انطلاقة صاخبة جدًا أثارت إعجاب الجميع ، ورحت أقوم ببعض (الغرز) البارعة كلما رأيت سيارة يقودها رجل هادئ مسالم ، حتى أثير الرعب فى نفسه ..

وتحمس شاب فى سيارة رياضية كى يسابقنى .. ولمدة دقائق ارتجف الشارع رعبًا من هذا السباق المخيف ، ثم - بالطبع - كانت سيارته أصبى وأقوى ، وأخرج يده اليسرى ملوحًا بالسيجارة يحيينى فى سخرية وهو يبتعد ..

كدت أموت غيظًا ، وأسودَت الدنيا فى عينى .. إن الحياة قاسية لا تستحق أن نعيشها .. يجب أن أقتل نفسى .. لقد سبقنى ! سبقنى وسخر منى !

رحت أقود السيارة شارد الذهن شاعرًا بخيبتى .. وكانت هناك لجنة مرور تسدَ الطريق .. ياللكارثة ! من المستحيل أن يصدقوا كلامى أو يجدوا أننى أشبه صورتى فى الرخصة .. هذه مشكلة أخرى ..

لكن كانت هناك مشكلة مع سائق (تاكسى) ، خرج من سيارته وراح يعوى ويصرخ محاولاً إقناع الضابط بأن يعيد له رخصته ، وجاء دورى لأمر من الفتحة الضيقة .. هنا أشار لى (الصول) فى ملل كى أمرَ ، وراح يتابع المشكلة دون أن ينظر لى مرتين ..

وهكذا نجوت بمعجزة !

يجب أن أضع بعض (المكياج) لأبدو شبيهًا بالصورة ..

واصلت القيادة حتى وجدته !

من ؟ طبعًا صاحب السيارة الرياضية إياه .. كان يقف بسيارته أمام كافتريا صغيرة .. كان جالسًا فى السيارة بينما وقف ثلاثة فتيان وفتاتان يشربون العصير ويتحدثون معه ، وقد أراح أحدهم ردفيه على مقدمة السيارة ..

أوقفت سيارتى بدورى ، وقد صعد الدم إلى رأسى (كما كنت أقول زمان) ، ونزلت .. مشيت نحوه بثقة و ... وتؤدة كما يقولون ..

خبطت على زجاج النافذة الأيمن ، فنظر لى فى ضيق والسيجارة تتدلى من فمه ، ثم أنزل الزجاج ليسمع ما أقول من سخف ..

قلت له فى عصبية :

ـ « عيب يا كابتن ! »

ـ « أى عيب ؟ »

أشرت لسيارتى وقلت :

ـ « أنا صاحب هذه السيارة .. لقد كدت تصطدم بى من ربع ساعة .. »

نظر للسيارة لحظة ، ثم راح يهتزّ بالضحك ، وبدورهم راح أفراد العصابة يضحكون :

ـ « هل .. هل هذه سيارة ولا مؤاخذة ؟ حسبتها .. حسبتها .. صندوق قمامة ! »

غلى الدم فى عروقى .. بالطبع هو لم يصطدم بى لكنى كنت بحاجة إلى التحرش به .. لذا صحت :

ـ « يبدو أنك لم تتعلم الأدب ! »

هنا وجم الجميع ، أما هو فأشار لزملائه مهدئًا .. مهلاً .. مهلاً .. دعوا الأمر لى .. وفتح باب سيارته والسيجارة مازالت تتدلى من فمه ، وقال :

ـ « معذرة .. إن أذنى ليست على ما يُرام .. يبدو أننى سمعتك تتكلم كالرجال .. »

قلت فى ثبات وأنا أضرب قبضتى بكفى :

ـ « أنا رجل برغمك .. وأكررها : أنت قليل الأدب ..»

دنا منى حتى صار على بعد متر ، والتفت إلى رفاقه الذين بدا عليهم الاستمتاع كأنما يريدون ما هو أكثر ، وقال بلهجة من يهدئ الأمور :

ـ « صبرًا .. صبرًا هذا رجل طيب ومن السفالة أن نعامله كما .. »

وتوقعت ما سيحدث لأننى أرى أفلام (تشارلز برونسون) كثيرًا ، وهو أيضًا يراها .. لقد استدار

نحوى فجأة ووجه لى لكمة قوية ، لكنى ثنيت قدمىَ ووثبت لأدفن رأسى فى بطنه .. وبدأت المعركة ..

كنا ساقطين على مقدمة سيارته نتبادل اللكمات ، ولو لم يتدخل رفاقه لكان النصر نصيبى .. لكنهم تحمسوا وانقضوا علىَ بدورهم .. واحد أحاط عنقى من الخلف بساعده ، وواحد ضربنى فى بطنى ، وواحد لكمنى فى فكى ، وتطوَعت فتاة بأن تغرس مخالبها فى وجهى ..

كنا نتقاتل ، وقد أوشكوا على (التخليص علىَ) ، لولا أن سمعنا من يشتمنا بصوت عال ، وشعرنا بأيد ثقيلة تجذب كلاً منا من قفاه ، ثم وجدت نفسى فى (البوكس) ..

يبدو أنها دورية شرطة كانت تمسح المنطقة ، فوجدت هذا المنظر الغريب ..

وفى قسم شرطة (...) عوملنا أحسن معاملة .. بضع صفعات ثم حلقوا لى شعرى (زيرو) كى يكون درسًا لشاب مستهتر مثلى .. لا شىء غير هذا ..

جاء أقارب الفتية الأربعة واصطحبوا أبناءهم ، أما أنا فلم أجرؤ طبعًا على قول من أنا .. وبالطبع لم يسألنى أحد عن بطاقتى لأننى كنت أبدو حدثًا .. فى النهاية قلت للصول رقم تليفون (عزت) باعتباره أقرب أقاربى ..



ووجه لى لكمة قوية ، لكنى ثنيت قدمىّ ووثبت لأدفن
رأسى فى بطنه .. وبدأت المعركة ..

وأستطيع أن أتخيل وجه (عزت) حين قال له الصول :

- « إن (رفعت إسماعيل) عندنا .. مشاجرة مع شباب مستهتر مثله .. قال لنا إنك ولىّ أمره ! »

وبعد ساعة - كما تمنيت - جاء (عزت) ممتقع الوجه (مذهول) .. ورآنى فلم يفهم شيئاً ، لكنى قلت له :

- « أنا (رفعت) يا (عزت) .. صدقنى .. خذنى معك ووقع بالاستلام وسوف أخبرك بكل شىء .. »

وقع بالاستلام ، وهو لا يرفع (عيناه) عن وجهى ..

وحين غادرنا القسم كاد يوقف (تاكسى) ، لكنى قلت له إن سيارتى قريبة حيث تركتها منذ (ثلاثة) ساعات .. ومشينا فى ظلام ما بعد منتصف الليل إلى هناك صامتين ، ويبدو أنه لم يصدّق حتى اللحظة التى أخرجت فيها المفتاح وأدرت المحرك ..

صاح فى ذعر :

- « ماذا حدث يا أحمق ؟ » هل أنت (رفعت) أم لا ؟

إن عينيك ولهجتك وملامحك تقول إنك هو .. لكن .. مهلاً ! لا تتهور فى القيادة ! لقد كدت تصطدم بهذه الشاحنة ! »

قلت فى مرح :

ـ « لا عليك .. أنا لا (أخيَش) أبدًا ! »

يبدو أنها كانت رحلة مريعة له ، لكنى (أثنائها) حكيت له كل شىء .. وحين وصلنا للبيت أخيرًا ، طلع السلَم دون كلمة أخرى ، ووقف على باب شقتى ينتظرنى حتى فتحت له ..

بعد دقائق راح يكلم فيها نفسه قال :

ـ « ألن تنتهى من كل هذه الغرائب ؟ أتمنى أن تكفَ عن تحطيم أعصابى بكل مفاجآتك التى لا تنتهى .. اليوم أنت صبى مراهق وأمس كان وباء التيفوس يزورنى فى دارى طالبًا المبيت .. ثم ماذا ؟

إن اليوم الذى تصحو فيه وتنام كباقى البشر هو يوم غريب بحق ! »

قلت له باستهتار :

ـ « كل ما هناك أننى استرددت شبابى .. هذا هو حلم الناس من (دشليون) سنة .. »

ـ « ألست مذعورًا من هذا ؟ وبعد أسبوع كم سيكون عمرك ؟ »

ـ « أعتقد أننى توقفت هنا .. »

ساد الصمت .. وقال بعد تفكير :

ـ « هذا هو سرّ تصرفك الطفولى السخيف مع (نجلاء) .. بدأت أفهم .. »

ـ « تلك الشمطاء ؟ لا تعكر مزاجى من فضلك .. »

لم يعلّق .. قال وهو (يتمشى) فى أرجاء الصالة حائرًا :

ـ « (رفعت) .. لو كنت مكانك لاتصلت بهذا المعالج الرومانى طالبًا النصح .. يجب أن ينتهى علاجه .. »

ـ « أنا لا أحمل هم هذا .. »

ـ « إذن عش حياتك كما تشاء .. لكن على الأقل أريد شيئين : مفتاح شقتك كى أستطيع الدخول لو حدث شىء ما .. وعنوان ورقم هاتف الرومانى .. »

كانت عندى نسخة من مفتاح الشقة فأعطيته إياها بلا مبالاة .. ماذا يمكن أن يحدث لو كانت عنده ؟ وأعطيته عنوان ورقم هاتف الرومانى فى (نيويورك) ..

تمنى لى ليلة طيبة ، وانصرف وهو (يبرطم) ..

كانت الساعة الرابعة صباحًا ، لذا كتبت بسرعة حصاد اليوم ثم سأنام الآن ..

مساء العسل !

الجمعة ٨ مايو :

فى العاشرة صباحًا دق جرس الباب بحزم ففتحته .. كان هذا هو الأستاذ (زكريا) جارى وأبو حبيبتى (هالة) .. عرفت أنه (ناوى على شر) من نظرته ، ومن الورقة المطوية التى يحملها ..

كان هذا هو الخطاب الذى أرسلته لهالة أمس !

قال لى فى حزم :

ـ « أين الدكتور (رفعت) أيها الصبى ؟ هل أنت قريبة ؟ »

حقًا كانت هذه الإجابة التى أريدها ، فقلت فى ارتباك :

ـ « هو ليس هنا يا (عمَو) .. أنا (خالد) ابن شقيقته .. »

احمرَ وجهه كالطماطم ، وقال :

ـ « كنت أريد الكلام معك .. لكن ما الفائدة ؟ إن العبرة بالكبار الذين يتركون للصغار الحبل على الغارب .. إن لى كلمتين مع خالك يا فتى ، ولسوف يسرَه أن يعرف أنك استخدمت اسمه فى خطاب غرامى لابنتى ! »

خشيت أن أستفزَ الرجل أكثر من اللازم .. لقد كان (مصاب) بارتفاع الضغط ، وقد أصابه نزف مخى منذ فترة شفى منه بصعوبة ..

لهذا قلت فى (كسوف) وأنا أنظر للأرض :

ـ « كما تأمر يا (عمَو) .. إنه سيعود فى المساء .. »

ـ « جميل .. ولا تتوقع أننى سامحتك على شىء ، لكنى فقط أتخير من أريد أن أدخل السجن بسبب تهشيم رءوسهم .. »

ودون كلمة أخرى انصرف ..

دخلت الشقة ، وفتحت الراديو حتى وجدت أغنية حزينة لـ (فيروز) تقول :

« باكتب اسمك يا حبيبى عالحور العتيق ..

تكتب اسمى يا حبيبى عا رمل الطريق .. »

ودمعت عيناى تأثرًا .. أنا أكتب اسمك يا حبيبتى على قصائد (الشابى) ، أما أنت فتعطينها لأبيك .. كى يكتب اسمى فى محاضر البوليس !!

أواه من الحب ! ما أقساه ! خاصة حين يأتى من طرف واحد بلا أمل فى رضا الطرف الآخر ..

أنا المعذب المنبوذ الذى عانى أهوال الحبَ ، دون أن تجفف يدا حبيبته الرقيقة دموعه .. أنا الذى ..

هنا دق جرس التليفون ..

سمعت صوت (كاميليا) تقول : آلو ..

- « مرحبًا يا (كاميليا) .. أحلى نهار .. »

- « هل الدكتور (رفعت) موجود يا بنىَ ؟ »

قالتها بشىء من الحرج والارتباك ، لأن هذا الفتى عرف اسمها ، ثم إنه ناداها دون ألقاب ..

قلت فى شىء من العسر :

ـ « أنا هو .. »

ـ « هل تمزح ؟ أرجوك ناد الدكتور (رفعت) .. »

أقسمت بالله العظيم أن هذا أنا ، وأن صوتى غريب بسبب البرد وتليف الحنجرة ، ولأؤكد كلامى قلت لها إن كتابها لا يحوى حرفًا عن (كيركجارد) .. لا أدرى كيف تذكرتُ الاسم ..

قالت فى دهشة :

ـ « غريب هذا يا (رفعت) .. هذا صوت مراهق يتحسس طريقه بين (سرسعة) الطفولة وخشونة الرجال .. ما علينا .. متى تجلب لى الكتاب ؟ »

قلت فى ملل :

ـ « ذلك الكتاب السخيف ؟ لا أدرى أين هو .. لا بد أن أم (سعد) تخلصت منه .. أرجوك ! لا داعى للإهانات ! إن مزاجى غير رائق اليوم .. دماغك ! سأحضر لك هذا (المدعوق) بمجرد أن أجده .. سلام ! »

ووضعت السماعة ..

عند العصر تسليت قليلاً بالمعاكسات الهاتفية ..

كنت اطلب الرقم ثم لا أردَ على المتكلم .. فقط أكتفى بأن أزوم .. ياه ! لقد ضحكت كثيرًا جدًا .. وكنت أتلذذ بكل الشتائم التى انهالت على رأسى ..

وفى المساء اتجهت إلى ستوديو التصوير كى ألتقط لنفسى صورة جديدة كما وعدت الرومانى .. لا أدرى لماذا أهتمَ لكنى أنا نفسى كنت أريد أن أرى الفارق ..

استلمت صورة ٣٠ أبريل .. وقال لى المصوَر وهو يتفحص الإيصال :

ـ « إن أخاك الأكبر يشبهك كثيرًا .. لكننى كنت أفضل لو انتظرت حتى ينمو شعرك ثانية .. لماذا حلقته بهذا القصر ؟ »

ـ « لأننى معجب بـ (بول براينر) .. »

طبعًا لم يكن يعرفه ، لكنه استنتج أنه ممثل أو رياضى شهير أصلع ، وابتسم وهز رأسه بمعنى : يا لشباب هذه الأيام !

طبعًا لم أكن أستطيع إخباره بأن هذه الحلاقة تم عملها فى صالون قسم البوليس .. ألا ترى معى هذا الرأى ؟

* * *

أربعون !

السبت ٩ مايو :

يبدو أن هناك مشكلة .. (الهدوم) التى اشتريتها أمس صارت واسعة جدًا .. يبدو أننى صغرت أكثر ..

خفت جدًا أن أنزل إلى الشارع هكذا ، ورحت أرى نفسى فى مرآة الحمام .. وجهى أصغر بكثير وقد صرت قصيرًا ..

فتحت الثلاجة أبحث عن طعام .. لا أعرف لماذا أحبّ الحلوى هكذا ..

أكلت كل الحلوى فى الثلاجة ، ثم بحثت فى (النملية) عن وعاء السكر وأخذت منه بالملعقة (ثلاثة) مرات ..

بعدها دخلت الحمام ، وفتحت مياه الحوض ، ورحت أتسلى باللعب بالماء وبعثرته على الأرض .. ليست لدى أم تلومنى على ما أفعله ..

وعند الظهر فتحت التليفزيون وشاهدت (عصافير الجنة) والكارتون .. أنا أحب (ماجد عبد الرازق) من زمن ، لكنى اليوم شعرت بأننى أريد أن أتعلق بعنقه ، وأنام على ركبتيه .. بابا (ماجد) .. هكذا يسمونه وأفهمهم الآن ..

بحثت كثيرًا جدًا عن كتاب (كاميليا) ، حتى وجدته تحت السرير .. ورق كثير جدًا عليه كلام بخطٍ جميل .. أحضرت قلمًا ورحت أتسلى برسم مدفع ودبابة وضابط وطيارات ..

فى موعد الغداء رنّ جرس التليفون ، فرفعت السماعة .. سمعت (رأفت) زميلى فى القسم يقول :

- « هل عمّو (رفعت) بجوارك يا حبيبى ؟ »

بالطبع لن يعرف الصوت .. قلت :

- « ليس هنا يا (عمّو) .. »

- « هل أنت قريبه ؟ »

- « أنا ابن أخته .. أنا (رامى) .. هل أخبره بشىء ؟ »

- « كلا .. لم يأت للمستشفى منذ يـوم الأربعـاء .. حسبته مريضًا .. هل هو بخير ؟ »

- « نعم يا (عمَو) .. سأخبره أنك اتصلت .. »

ووضعت السماعة ، وبـدأت أعدَ الغداء .. مجـرد تسخين لطعام أمس ؛ لأننى لا أعرف كيف أخرج بهذه الثيـاب .. إشـعال البوتاجـاز صعبٌ حقًـا ، وقـد أحـرق الكبريت يدى .

الدنيا ليل الآن .. أضأت كل الأنوار فى الصالة وغرفة النوم .. أشعر بخوف من الظلام وأنا وحيد ولو دخل أى شىء الشقة فسوف ....

لكنى (مكسوف) من أن أذهب لشقة (عزت) ..

جلست وحـدى فى الفـراش ، وبدأت كتـابة مذكـرات اليـوم .. لـو كـان مـن الممكـن أن تـروا خطـى الآن لدهشـتم ..

صـوت شـىء يتحـرك فـى الصالـة .. أنـا خـائف .. سأغلق باب الحجرة علىَ وأحاول أن أنام ..

الأحـد ١٠ مايـو:

يـا سـلام .. الشـمس جميلـة . لـم (أعـود) أخــاف . أعرف أن اليوم ١٠ مايو لأننى قرأت هذا فى النتيجة .

أنا جوعان . الهدوم واسعة جدًا (عليَا) . أنا أرسم (رسوم) جميلة فى ورق طانط (كاميليا) .

أنا ألعب فى الشقة . ووجدت (أقراص) جميلة فى درج الكومودينو . مكتوب عليها (نيترو) أو .. أريد أن أبتلعها كلها . لكنى لن أبتلعها لأن الأطفـال يمرضون لو بلعوا (أقراص) الكبار .

أنـا جوعـان . لا يوجـد فــى الثلاجــة أكــل . توجـد (فرخــة) لكنهـا متجمـدة ولا أستطيع طبخهـا . أكلــت بعض السكر . السكر طعمه جميل . أنا أحب السكر . نفسى كل الدنيا تبقى سكر .

وجدت فى البلكونة (أبو المقص) (واقف) علـى السور . أردت أن أمسكه لكنه جرى منى ووقف علـى حبل الغسيل .

أشـد الكرسى للبلكـونة وأقف عليـه . أمـدَ (إيـدى) للخارج جدًا وأمسكه من جناحه .

سمعت جارتنا تصرخ من بلكونتها :

ـ « الولد حايقع ! الحقوه ! »

لكنى لم أهتم ، ورفعت بإيدى (أبو المقص) ونزلت من على الكرسى . وبحثت عن خيط ربطته فى ذيله . ورحت أتركه ليطير فى الهواء ثم أشده من جديد . ولما زهقت سبت الخيط فطار (بعيد) عنى .

فتحت التليفزيون وشفت برنامج الأطفال ضحكت كتير على البطة الغبية (اللى) تحاول الطيران .

بعد كده لعبت فى الحمام (كثير جدًا) . وغسلت كل اللعب . عندى سيارة بالزمبلك وبطة اشتريتها لأولاد أختى . أخذتها أنا لنفسى .

جوعان جدًا . الشمس (روَحت) لبيتها . وأنا أكره الليل . فى الليل (تيجى) حيوانات كثير و (عاوَات) تأكل الأطفال .

لم (أوصل) لمفتاح النور لأنى قصير . شددت الكرسى ووقفت عليه وأضأت النور . جلست فى السرير (أمشى) السيارة على الملاءة وأعمل (أصوات) بفمى .

ثم قلت إنى أكتب المذكرات . أنا لا أعرف السبب . لكنى أشعر إن المذكرات مهمة جدًا ، خطى جميل وعلى السطر، ووضعت كل (النقط) والهمزات مكانها ، لو أبلة (مفيدة) مدرستى فى الابتدائى رأت هذه الكتابة . بالتأكيد ستعطينى النمرة النهائية ونجمة .

يارب (تيجى) الصبح بسرعة . يا رب لا يحدث شىء .

الإسنين ١١١١ ماى :

جعان . أكلت سكر كثير جدًا . لعبت . أكتب فى (الكراثة) .

رسمت أرنوب وبطة فى ورق طانط (كاميليا) .

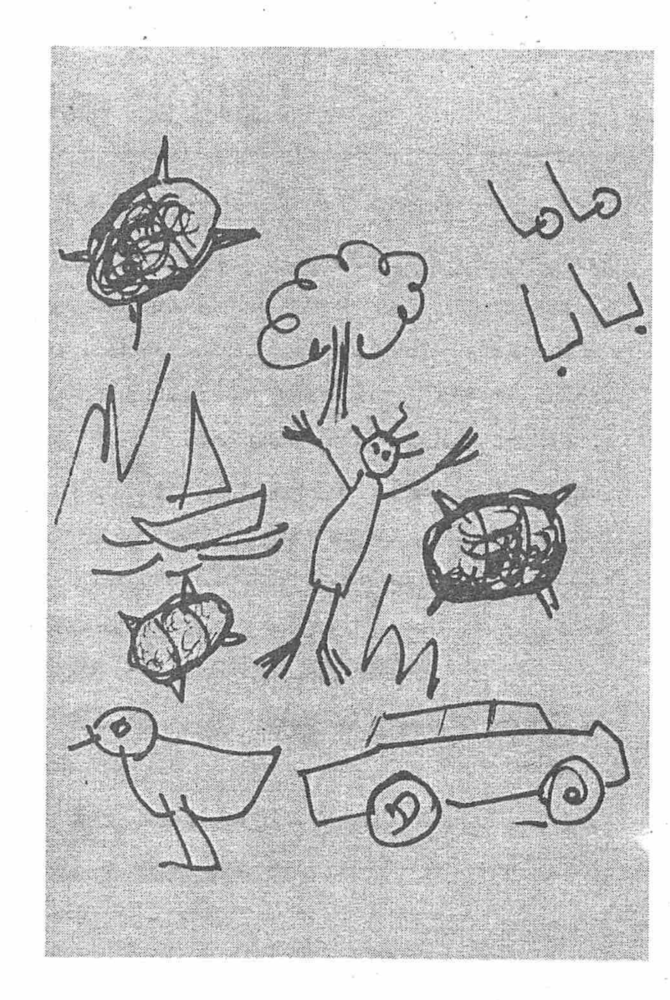
الكبار . جعان . يا ربَ ييجوا .

الثلسا :

★ ★ ★



رسمت أرنوبًا وبطة فى ورق طانط (كاميليا) ..


ماما
بابا

نحو الزوال !

الجزء التالى كتبته د. (كاميليا) أستاذ الفلسفة :

لم أكن أتوقع ولم أرغب قط فى أن يكون لى دور فى هذه القصة .. لقد جرح (رفعت) كبريائى بتعامله المستخف تجاه كتابى ، وأزعم أن فى سلوكه ما بدا لى درجة فاضحة من عدم النضج والخرق . والجواب على كل حال جاهز دائمًا .. إنها المراهقة المتأخرة ..

وعلى كل حال أنا لم أر قط من (رفعت) ما يدحض اعتقادى بوجود خلل ما فى قواه العقلية . كانت لديه دومًا أعذار جاهزة بصدد هذا المستنقع الميتافيزيقى الذى يعيش فيه ، حيث يتداخل عالما الواقع والخيال بشكل لا يمكن وصفه .

كنت أحتفظ بهذا اليقين حتى يوم الأربعاء الثالث عشر من مايو ..

فى التاسعة مساء كنت أقرأ بعض كتابات (برديائيف) حين دق جرس الهاتف ، وسمعت من يسألنى على استحياء إن كنت أنا الدكتورة (كاميليا) ..

هذا من يدعى (عزت) .. يبدو أنه رسام أو نحات يعيش فى الشقة المجاورة لهذا الـ (رفعت إسماعيل) .. قلت له فى تصميم : إننى غير راغبة فى سماع شىء عن ذلك الرجل غير المستقر انفعاليًا ، وبدا لى من الوقاحة أن يعطيه (رفعت) رقم هاتفى كى يتوسط بالصلح . إنها طريقة سوقية صالحة لسوق الثلاثاء لكنها لا تناسبنى بالتأكيد .

قال لى هذا الـ (عزت) متوسلاً .

- « أريدك هنا حالاً .. الأمر خطير بحق .. »

- « وكيف عرفت رقم هاتفى ؟ »

- « وجدت فى مذكرات د. (رفعت) كلامًا عنك ، وبحثت فى دفتر الهاتف الخاص به حتى وجدت الرقم ..

بدا لى الكلام خطيرًا ، فلماذا يطلع (عزت) هذا على مذكرات (رفعت) ؟ ولماذا يفتش عن رقم هاتفى بنفسه .

وأنا مخلوقة وقتها ثمين وكرامتها أثمن ، لكنى وجدت نفسى مدفوعة دفعًا إلى ارتداء ثيابى ، وركوب أول سيارة أجرة قبلت أن توصلنى إلى دار (رفعت إسماعيل) . لقد وصف لى (عزت) العنوان بدقة .

وصعدت إلى شقته ، وقرعت الجرس ، ففتح لى الباب رجل بادى المرض نحيل أسمر الوجه ، قدم لى نفسه أنه من يُدعى (عزت) . إذن هذه شقة (رفعت) ؟ كنت أحسبه أكثر نظامًا ، لكنى صدمت إذ رأيت الأثاث مبعثرًا فى كل صوب ، وقطع الحلوى تتناثر بقاياها على الأرض ، والمياه تغرق السجادة ، وكتابة بالقلم الشمع على كل الجدران ..

وعلى أريكة فى وسط الصالة ، كان رضيع صغير لا يكف عن الصراخ والركل . وأدركت أن المسكين عار تمامًا لكن أحدهم قام بلفه كيفما اتفق فى قميص صوفى ..

ـ « أين (رفعت) ؟ ومن هذا الرضيع ؟ »

قال (عزت) وهو يرتجف رعبًا :

ـ « إجابة السؤال الأول هى ذاتها السؤال الثانى ! »

★ ★ ★

ـ « آه .. فهمت .. وإننى لشاكرة على هذه الدعابة .. »

واستدرت قاصدة الباب ، عازمة على عقاب هذين المهرجين بأسلوب لم أستقر عليه بعد ، لكن (عزت) استوقفنى وجذبنى من كمى :

- « أرجوك أن تنتظرى كى تفهمى هذه الكارثة .. »

قلت فى شمم وأنا أحرر كمى :

- « لو فعلتها مرة ثانية ، فلسوف يكون حسابك عسيرًا .. »

« بدا عليه الخجل ، ومدَ لى يده بمفكرة صغيرة ، وقال :

- « ها هى ذى مذكرات (رفعت) فى الفترة الأخيرة .. أريد أن تجلسى وتقرئيها ، ولسوف أقبل حكمك بعدها .. »

- « بشرط أن تفتح باب الشقة .. »

رفع يديه فى استسلام ، وقال :

- « بل سأتركها وأنتظر فى شقتى حتى تقرعى جرس بابى .. خذى راحتك » .

أشرت إلى الرضيع وقلت :

- « وهذا ؟ أليس جائعًا ؟ » .

- « لا أظن .. لقد أعطيته رضعة منذ ربع ساعة .. لكنى بحاجة إلى أنثى لهذا السبب .. إن الرجال لا يعرفون عن الرضع أكثر مما يعرفون عن حيوان (التابير) .. » .

- « وهل حيوان (التابير) يرضع ؟ » .

- « لا أدرى .. لهذا اتصلت بك ! »

وغادر الشقة ، وأغلق الباب وراءه ..

★ ★ ★

وفى اللحظات التالية لم أستطع أن أقرأ ما دوّنه (رفعت) وأنا جالسة . رحت أذرع الصالة كنمر حبيس غير مصدقة .

لكن السطور كانت تتحدث عن نفسها ، وكانت القصة ذاتها أعقد من أن يكون كتبها خصيصًا لخداعى . وكان التغير فى الخط والأسلوب تدريجيًا لكنه مخيف . خط (رفعت) المنسق الواضح يتحول لخط صبى ثم يتحول إلى خربشات طفل يعرف بصعوبة كيف يمسك بالقلم .

أفكاره تتحول من أفكار كهل ناضج إلى شاب على شيء من الخرق ، إلى مراهق غرير ، إلى طفل ساذج لعوب .

لقد أثار هذا القشعريرة فى عروقى .

والسطور الأخيرة : سطور طفل وحيد لا يعرف ما يعمل بنفسه ولا لماذا تخلى الكبار عنه . طفل جائع . طفل يهاب الظلام . طفل بحاجة إلى أم .

كم هى قاسية !

ونظرت إلى الرضيع الغافل ، وقلت له بلهجة اللوم :

ـ « (رفعت) .. ماذا فعلت بنفسك يا أحمق ؟! »

* * *

وبعد ساعة قرعت باب الأستاذ (عزت) ، ففتح لى . دعوته همسًا إلى أن يلحق بى فى شقة (رفعت) .

فلما أغلقنا الباب قلت له :

ـ « وكيف دخلت أنت ؟ »

قال وهو يتأمل الرضيع :

ـ « كما قرأت فى المذكرات ، كنت أتوقع شيئًا كهذا .. لهذا أصررت على الاحتفاظ بنسخة من المفاتيح .. واليوم عند العصر سمعت طفلاً يبكى فى الشقة ففتحتها ، ووجدت ابن ثلاثة أعوام يقف وحده مغطيًا عينيه ، وهو لا يكف عن العواء ذعرًا .. »

ـ « لحظة .. تعنى أنه كان راقدًا ؟ »

اتسعت عيناه ذعرًا وقال :

ـ « بل كان واقفًا .. أقول إن عمره كان ثلاثة أعوام عصر اليوم ! »

ـ « يا للهول ! »

ثم إننى قمت بترتيبات عملية كدأبى . أولاً لا جدوى من البقاء هنا لأن هذه ليست دارنا ، وإن بقاءنا هنا محلبة للأقاويل والأسئلة . سيكون علىَّ أن آخذ الرضيع إلى دارى حيث أعنى به .

ثانيًا سيكون على الأستاذ (عزت) أن يحاول جهده كى يتصل بذلك المعالج الرومانى فى (نيويورك) . لو كان الرجل يعرف طريقة لوقف هذا التأثير المدمر فالوقت وقتها .

سألنى الأستاذ (عزت) :

- « ألا ترين الصواب أن نطلب رأى الطب ؟ »

- « لن يصدقنا أحد ، وسنضيع وقتًا ثمينا .. عامان ونصف فى ست ساعات .. معنى هذا أن الصباح لن يطلع إلا وقد تحول هذا البائس إلى نطفة ! »

لم تكن هناك مشاكل فى مغادرة البناية باعتبارنا أسرة صغيرة سعيدة .

وبعد ما تبادلت رقمى الهاتف مع الأستاذ (عزت) ، حملت (رفعت) وعرجت على بعض المحال ، فابتعت ما يلزم : غيارات (لم تكن هناك حفاضات فى هذا الوقت) .. كوافيل .. علبة لبن مجفف ..

ثم استقللت سيارة أجرة إلى دارى حيث أعيش وحيدة .

وفى شقتى بدأت ممارسة مهمتى العسيرة . أنا لم أعتن برضيع من قبل لكنى خدشت القشرة الرفيعة التى تحيط بغرائزى ، فكانت تحتها امرأة كاملة .. أم تعرف كيف تعنى برضيع ..

إن الأمومـة شـىء غريزى لا يعلَم .. وعلـى حيـن يضيع الطفل الذكر وقته فى اللهو بالمسدسات والعربات . تكون الطفلة عمليـة جـدًا : تتعب مع دميتهـا ، وتمشط شعرها ، وتبدل ثيابها .. باختصار .. تمارس الأمومة مـرارًا .

نزعت الثيـاب عن الرضيع وحممته بالمـاء الفاتر . ربّاه ! إن الأمور تسوء بحق . لم تعد له تلك النظرة الواعية المتابعة ، ولم يعد لـه ذلك التماسك العضلى السابق ..

الآن بـدأ يتحـول إلى كتلة رخـوة ، وصـارت عينـاه زجـاجتين عـاجزتين عن الحملقـة فى شـىء ، وغــدا بكاؤه واهنًا أقرب إلى الصرير . هذا كله يميز حديثى الولادة .

إن عمر (رفعت) الآن لا يزيد على شهرين بحال .

دثرته كيفما اتفق ، وأعددت له رضعـة دافئـة ، ثـم جلسـت ألقمــه إياهـا . ولدهشـتى فطنـت لحقيقـة أن (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الـدم الشـهير ينام بيـن ذراعىَ الآن ، وقـد قمـت بتحميمـه كذلـك ! لكنى

لشدة العجب وجدت أننى أحبَ هذا الـ (رفعت) أكثر . وأرتاح إليه .. يمكننى رعايته أعوامًا طويلة لو لم يتلاش بعد ساعات .

بعد ما هدأ الصغير أخيرًا ، وقد تلذذ بالدفء والشبع حسب القوانين (الفرويدية) الصارمة ؛ فتحت المفكرة ورحت أطالع ما كتبه بدقة أكثر .

وسرّنى أنه فى ٢٤ أبريل جلس يقرأ كتابى وأحبَه . أنا أثق بنفسى كثيرًا وأشعر أن الكتاب جيد . لكنى برغم هذا سررت أيما سرور حين عرفت أنه راق له حين كان يتمتع بعقلية راجحة .

أما عن الكتاب ذاته فقد قمت بجمعه من شقته ، وكان فى كل مكان وقد رسمت على صفحاته كلها تقريبًا أرانب ومناطيد وسيارات و (بطابيط) . بعض الصفحات تحولت إلى مراوح أو مراكب . يبدو أن هذه الأخيرة قد تم عملها حين كان فى سن العاشرة .

لكننى أعتقد أنه كان كاملاً .

ورحت أجوب صفحات المفكرة وعيناى على الرضيع النائم ، الذى أوشك على القول إننى اراه وهو يصغر .

هنا دق جرس الهاتف فرفعت السماعة . كان هذا الأستاذ (عزت) كما توقعت ، وقال لى ما توقعت :

- « مستحيل أن أتصل بـ (نيويورك) .. لقد حاولت كثيرًا .. »

- « حاول ثانية .. إن الأمر صار جدًا لا هزل فيه .. إنه يزول .. »

- « سأحاول .. لكن الأمور ليست بهذه البساطة .. »

كنا فى تلك الأعوام التى وصلت فيها شبكة الهاتف إلى نهاية عمرها ، وكان من المستحيل على المرء أن يتصل ببيت أمه ، فما بالك بـ (نيويورك) ؟

وكان على من يريد الاتصال بالخارج أن يسافر إلى (قبرص) ليتصل من هناك ![*]

ورحت من جديد أطالع المفكرة فى قلق .

يوجد احتمالان لا ثالث لهما هنا ؛ إما أن المعالج الرومانى كان أحمق قليل التقدير للأمور ؛ وإما أن (رفعت) قد نسى نصيحة معينة أو أنسيها فى غمرة الاستهتار الذى اجتاح أفكاره .

(★) حقيقة .

بالطبع لا يتعلق الأمر بشىء يتعاطاه (رفعت) بانتظام طيلة الفترة الماضية ، لأنه لم يأكل شينا منذ يوم السبت ٩ مايو ، وبرغم هذا هو مستمر فى التلاشى .

الأمر يتعلق إذن بشىء أخذه فى أثناء المعالجة أو زرع فيه من وقتها .

زرع فيه ؟

ومن جديد رحت أطالع الرسوم التى خطّها حين فقد قدرته على الكتابة ، وحين تسربت (الأجرافيا) Agraphia إليه كما تسربت أشياء كثيرة . إنه يرسم هذا الرسم بكثرة:

رأيته فى أوراقى فحسبته يرسم مناطيد ، ورأيته فى آخر صفحتين من مذكرته . مال هذا الصبى والمناطيد وكيف يعرفها أصلاً ؟ الجواب المنطقى أن هذا ليس منطادًا إنما هو شىء آخر .

شىء يحاول البائس ، فى غمرة انزلاق الوعى ، أن ينبهنا إليه .. شىء يكمن فيه خلاصه من هاوية العدم ..

لقد راح يرسمه مرارًا بعد ما عجز عن كتابته ، لم يجد الكلمات ليقولها .

رحت أتأمله نائمًا ، ثم إننى حملته إلى غرفة النوم ، لشدَ ما خف وزنه حتى لأحسبِه لا يزيد على أربعة كيلوجرامات .

نزعت ثيابه تمامًا وهو يحتج فى وهن . ثم رحت أتحسس جسده الصغير بحثًا عن شىء ما ، علامة ما ، لم أعرف قط أن لـ (رفعت) أصابع قدم مبتورة .

فى النهاية شعرت به ، على لوح كتفه الأيمن شىء بارز فى حجم ظفر الإبهام ، تأملته بعناية فوجدت أنه مدفون هناك تحت الجلد وكان ينزلق فى أربعة الاتجاهات .

أرحت الرضيع على ساعدى لأتأمل الشىء بشكل أدق ، كان هناك جرح صغير ملتئم طوله نحو نصف السنتيمتر ، جرح نظيف كالذى يتخلف عن الجراحات ، أما الشىء البارز فكان له ملمس على شىء من الصلابة كأنه أرنبة الأنف ، وكان ينزلق بسهولة تامة .

شعرت بما يشبه اليقين أن هذا الشىء تم فتح جلد (رفعت) وزرعه هناك ، كما يفعلون بحبيبات منع الحمل التى تزرع تحت جلد الساعد .



نزعت ثيابه تمامًا وهو يحتج فى وهن . ثم رحت أتحسس
جسده الصغير بحثًا عن شىء ما ، علامة ما ...

وكان موقفى عسيرًا بحق .

لو أننى أخذت الرضيع الآن فلن أجد طبيبًا جراحًا فى هذه الساعات الأولى من فجر الخميس ، ولو هرعت إلى طوارئ إحدى المستشفيات فلن يصدقنى أحد ، إن كل شىء يمكنه الانتظار إلى الصباح .

أما لو كنت مخطئة وكان هذا الانتفاخ كيسًا دهنيًا ، أو شيئا لا أعلمه من الأشياء التى يكسب الأطباء عيشهم من معرفتها ؛ فمن العسير تبرير أن أحاول أنا نفس انتزاع هذا الشىء .

قررت أن اتبع حدسى وهو ما لم أعتده من قبل ، لقد اعتدت أن أتبع عقلى ومنطقى ، لكن هذا الموقف يتحدى كل عقل وكل منطق ، ولا ينفع فيه أن أكون حاصلة على الدكتوراه فى الفلسفة ، إن هذا لا يجعلنى أكثر فهمًا للموقف .

توكلت على الله (تعالى) ، وذهبت إلى المطبخ فانتقيت سكينا صغيرة ، ثم قمت بتسخينها للتطهير على نيران الموقد ، وانتظرت حتى بردت . ثم عدت إلى الرضيع وقلبته على بطنه ، وبطرف السكين بدأت شق الجلد فوق الجسم الصلب ، بالضبط على لوح كتفه الأيمن .

أنّ الرضيع وتأوه ، لكنه كان أضعف من أن يقاوم أو يصرخ ، وسال الدمع من عينى وسال من أنفى ، ورحت أردد كالمجنونة :

ـ « سامحنى يا بنى .. سامحنى ! »

إنها لمهمة عسيرة تقتضى قلبًا أغلظ وأقسى منى ، لكن كان على أحد أن يقوم بها ، وأخيرًا ـ وسط الدماء ـ تمكنت من شقّ جرح طوله بضعة ملليمترات ، واعتصرت الجسم الصلب محاولةً إخراجه .

لم يكن الجرح كافيًا فقمت بتوسيعه أكثر ، وأنا أغمغم :

ـ « سامحنى يا بنى .. لقد انتهيت تقريبًا .. اللّه ! كم أنت شجاع ! رجل صغير شجاع .. هلم ! »

واعتصرت الجسم الكريه ثانية ، فانزلق إلى الخارج أخيرًا .. وحين رأيته حمدت اللّه على صدق حدسى ، كان جعرانًا ، فرعونيًّا حقيقيًّا محنطًا ، هكذا حاول الصغير أن يرسمه فبدا كمنطاد .

وضعت الشىء الرهيب على الملاءة التى تلوثت بالدم ، ثم رحت أحاول أن أضمد الجرح ، وضعت عليه بعض البنّ (ويبدو أنها ليست طريقة طبية

فعالة ، لكن أمى كانت تمارسها معى ، وكانت تنجح) ، ثم وضعت بعض الشاش والشريط اللاصق كيفما أتفق .

لحسن الحظ أن ذاكرة الرضع لا تحتفظ بشىء ، ولحسن حظي أنهم لا يملكون حقدنا وتذكرنا الإساءات .. لقد بكى قليلا ثم استكان ونام فى حضنى ، فدثرته بثيابه ، وأخذته إلى الصالة وأنا أهدهده ، وقد أمسكت الجعران بقطعة من الشاش ..

وتحسست الجرح فوجدته قد كفَ عن النزف ، غدًا صباحًا سآخذه إلى طبيب كى يعنى به كما ينبغى ..

هذا لو ظل (رفعت) موجودًا حتى الصباح .

★ ★ ★

كان الفراعنة يجلَون الجعران إجلالاً شديدًا ، ويطلقون عليه اسم (خبرر) وهى لفظة معناها (يتجسد من جديد) ، لقد كان يثير دهشتهم حين يدفع أمامه كرة تحمل مادة التخصيب ، متجهًا من الشرق إلى الغرب ، وهو ما ذكرهم بحركة الشمس الأزلية .

وجد الفراعنة أن الجعران يرمز لتجدد الحياة باستمرار وبشكل تلقائى ، وإن عدد صور الجعارين على أختامهم وخواتمهم ليثير دهشة كل مهتم بالمصريات ، لقد أصدروا كذلك جعارين تاريخية تسجل المناسبات المهمة للدولة ، بنفس المنطق الذى نصدر به نحن الطوابع التذكارية ، وكانت توضع بين أكفان الموتى أو توضع فى توابيتهم ، وبصفة خاصة نرى جعران القلب المصنوع من حجر صلب وله جناحا صقر ، كان المطلوب من هذا الجعران أن يلقن قلب المرء السلوك الأمثل لحظة الحساب ، لهذا كتبوا عليه :

ـ « يا أوفى جزء فى كيانى ، لا تقف شاهدًا ضدى أمام المحكمة .. »

التجدد المستمر ، هذا هو ما يرمز له الجعران ، أنا لا أفهم أية معالجة مشئومة مرَ بها هذا الجعران المحنط قبل أن يزرع تحت جلد (رفعت إسماعيل) ، لكننى أعتقد أن الأمور منطقية ويمكن ترتيبها ترتيبًا عقلانيًا صارمًا .

لقد انتزعت الجعران ، فهل يتوقف تأثيره ؟

★ ★ ★

وفى الصباح بدا لى أن الرضيع لم يصغر أكثر ، وإن لم يكن قد تقدم فى السن قليلا ، وعند الظهيرة كان يمشى مترنحًا فى الشقة ويسقط من حين لآخر فيبكى ، ثم ينسى الأمر ويبعثر حاجياتى ، ويجذب المفارش من تحت المزهريات ، وبدأ يقول : « مم ! با ! » .

لقد كنت على حق .

وهكذا عشت أروع تجربة يراها إنسان حىّ فى اليومين التاليين ، أن أربى طفلاً يكبر أمام عينى بسرعة تسمح لى برؤيتها !

كان ينضج بسرعة ، ويتعلم .. وكان سرورى بالغًا حين استعاد القدرة على الإمساك بالقلم - عصر اليوم الأول - ثم استطاع أن يكتب اسمه عند المساء .

وحين صحوت فى اليوم الثانى من النوم ، كان فى العاشرة من عمره تقريبًا ، أمس تساقطت أسنانه اللبنية وبدأت الأسنان الدائمة تظهر اليوم صار قادرًا على مناقشتى وقراءة الجريدة .

كان ينادينى باسم (كاميليا) .. دون ألقاب ، هذا طبيعى ما دام لا يعتبرنى أكبر منه سنا ، ولم يتساءل قط عن كنه ما حدث له .

وفى اليوم الثالث كان مراهقًا بدأ شعر وجهه ينمو ، واخشوشن صوته كثيرًا ، وكان هذا هو الوقت الذى قررت فيه أنه قادر على العناية بنفسه .

لم يعد لـ (رفعت) مكان فى دارى ، وحان الوقت كى يعود مع (عزت) إلى شقته ، لكن هناك سؤالاً مهمًا ، ما زال يقلقنى : هل يتوقف عن النمو حين يصل إلى السن التى بدأ التجربة فيها ؟ أم هو مستمر بلا توقف ككل شىء فى هذه التجربة الحمقاء ؟

* * *

الخـاتمـة

مرحبًا بكم ..

هذا أنا (رفعت إسماعيل) من جديد .. بعد أسبوع قضيته متواريًا عن العيون فى دار (عزت) ، وبعد ما تحمل المسكين نزقى المراهق ، ثم شبابى اللامبالى ، مرورًا بكهولتى الكئيبة ..

أخيرًا يمكننى أن أقول إننى هو أنا .. بعقلى السابق وشخصيتى السابقة ، و ـ للأسف ـ أمراضى السابقة ذاتها ..

فى أسبوع واحد تساقط شعر رأسى ، وكثرت تجاعيدى ، وارتفع ضغط دمى .. كان (عزت) مذهولاً لكنه لم يملك إلا أن يصدّق ..

وقد لاحظت أن البقع البنية تكاثرت على ظهر يدىَ ، وهى علامة على الشيخوخة لم تكن لدىَ ، فأدركت أن الجعران ـ ذلك الأحمق ـ اختلس بضع سنوات من

عمرى .. إن الدقة تنقصه ، وأنا طيلة حياتى أمقت الجعارين غير الدقيقة ..

ما علينا ..

لحسن الحظ لم تستمر اللعبة بى إلى حدّ أن أبلغ سن الستين فالسبعين فالمائة ، ثم أموت بالشيخوخة خلال أسبوع .. كان هناك حدّ توقفت عنده اللعبة ..

وقلت لـ (عزت) وأنا أفتح باب شقتى ، مأخوذًا بالفوضى التى صنعها الطفل (رفعت) حين كان وحيدًا ..

ـ « تبًا ! إننى سأحتاج إلى أسبوع كى أعرف أين كان الحمّام .. »

ابتسم وقال :

ـ « أم (سعد) قادمة لإنقاذك غدًا .. »

قلت وأنا أجمع بعض الأوراق المبعثرة :

ـ « كان الخطأ خطئى .. لقد أنذرنى الرومانى بعد ما زرع الجعران تحت جلدى .. قال لى إن علىّ أن

أترك رسالة لدى قريب أو صديق لى ، تخبره بالقصة كلها وكيفية إيقاف مفعول العلاج ، فى حالة ما إذا زاد الأمر عن حدَه ..

« المشكلة هى أننى انبهرت فى البداية بصحتى المستعادة ، ونسيت تمامًا أن أخبركم .. ثم جاء استهتار المراهقة الذى جعلنى لا أبالى بأن أخبركم .. فقط فى مرحلة الطفولة كنت أذكر أشياء ضبابية عن شىء يشبه الجعران ، وشعرت أن علىَ إبلاغكم بشكل ما .. بالرسوم مثلاً .. هذا يذكرنى بفيلم (فانتازيا) أول فيلم ظهر فيه (ميكى ماوس) .. لقد راقب (ميكى) الساحر وهو يستعمل عصاه ، ثم قرر أن يجربها بدوره .. علَم المكانس كيف تنقل دلاء الماء وتسكبها على الأرض ، ثم نام (ميكى) ونسى تمامًا أن يوقف هذه العملية .. وحين صحا من النوم كان الماء قد وصل إلى عنقه »

وربَت على كتف (عزت) وقلت :

ـ « كانت الوخدة تمزقنى ، ولم أدر أنك و (كاميليا) صديقان مخلصان يمكننى أن أترك لهما رقبتى .. »

اسودّ وجهه فى تواضع ، وقال :

- « المهم أن تكون قد تعلمت شيئا .. إن أفضل سنّ قد تكون هى سنك الحالية .. ربما فقدت بعض الصحة لكنك اكتسبت كثيرًا من الحكمة وحبّ واحترام الآخرين .. »

قلت وأنا أفتح نوافذ الشقة :

- « وتعلمت كذلك ألا أثق بالسحرة الرومانيين ، ولا أسمح لهم بدسّ جعارين تحت جلدى .. كما تعلمت أن أقرأ كتب الآخرين بمجرد أخذها ، وألا أتحدّى سائقى السيارات الرياضية حين يكون هناك كثير منهم ، وألا أقذف رسائل غرامية لبنت الجيران ، وألا أبلل أريكة الصالة فى شقة (كاميليا) لأن هذا يجعلها تجنّ ! »

* * *

وهكذا انتهت أسطورة تختلف ..

* * *

فى القصة القادمة نلقى الكاهن الأخير (هن ـ تشو ـ كان) أخيرا وبعد غياب ، ولسوف يتعلق الموضوع بحفائر سرية يجرونها بحثًا عن لغز من ألغاز التاريخ ..

لكن هذه قصة أخرى .

* * *

د. رفعت إسماعيل
(القاهرة)

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

• صدر من هذه السلسلة •

1 - أسطورة مصاص الدماء.
2 - أسطورة النداهة.
3 - أسطورة وحش البحيرة.
4 - أسطورة آكل البشر.
5 - أسطورة الموتى الأحياء.
6 - أسطورة رأس ميدوسا.
7 - أسطورة حارس الكهف.
8 - أسطورة أرض أخرى.
9 - أسطورة لعنة الفرعون.
10 - أسطورة حلقة الرعب.
11 - أسطورة الكاهن الأخير.
12 - أسطورة البيت.
13 - أسطورة اللهب الأزرق.
14 - أسطورة رجل الثلوج.
15 - أسطورة النبات.
16 - أسطورة الناقارای.
17 - أسطورة حسناء المقبرة.
18 - أسطورة الغرباء.
19 - أسطورة بو.
20 - حكايات التاروت.
21 - أسطورة عدو الشمس.
22 - أسطورة المينوتور.
23 - أسطورة رعب المستنقعات.
24 - أسطورة إيجور.
25 - أسطورة الجنرال العائد.
26 - أسطورة المواجهه.
27 - أسطورتنا.
28 - أسطورة آخر الليل.
29 - أسطورة الجاثوم.
30 - أسطورة بعد منتصف الليل.
31 - أسطورتها.
32 - أسطورة رفعت.
33 - أسطورة أرض المغول.
34 - أسطورة الشاحبين.
35 - أسطورة دماء دراكيولا.
36 - أسطورة الفصيلة السادسة.
37 - أسطورة الدُمية.
38 - أسطورة النصف الآخر.
39 - أسطورة التوءمين.
40 - وراء الباب المغلق.
41 - أسطورة فرانكنشتاين.
42 - أسطورة الكلمات السبع.
43 - أسطورة تختلف.

فانتازيا

مغامرات ممتعة فى أرض الخيال

1 ـ قصة لا تنتهى .
2 ـ حكايات من والاشيا .
3 ـ صفر ... صفر ... سبعة .
4 ـ إمبراطورية النجوم .
5 ـ ذات مرة فى الغرب .
6 ـ خيول ورماح .
7 ـ ألعاب إغريقية .
8 ـ مملكة الموتى .
9 ـ الخناقون .
10 ـ الاسم شكسبير .
11 ـ نداء الادغال .
12 ـ بين عالمين .
13 ـ رجل من كريبتون .
14 ـ من بعد سوبرمان .
15 ـ إعدام فى البرج .
16 ـ شبح وشيطان .
17 ـ اقتلوا بطوط .
18 ـ توم ومن معه !
19 ـ خمسة منهم !
20 ـ من فعلها ؟!
21 ـ لا تدخلوا شيرود .

رقم الإيداع : ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
١٠,٨ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ـ ☎ ٢٨٢٣٧٩٢ ـ ٢٨٣٥٥٥٤